

قضايا إسلامية

سلسلة تصدر

مرة كل شهر عربي

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

فتنة التكفير

بين

الشيعة .. والوهابية .. والصوفية

أ.د. محمد عمارة

القاهرة

ذو الحجة ١٤٢٧ هـ - ديسمبر ٢٠٠٦ م

العدد (١٤٢)

قضايا إسلامية

سلسلة تصدر

غرة كل شهر عربى

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

فتنة التكفير

بين

الشيعة .. والوهابية .. والصوفية

أ.د. محمد عمارة

العدد (١٤٢)

القاهرة

ذو الحجة ١٤٢٧ هـ - ديسمبر ٢٠٠٦ م

يشرف على إصدارها

الدكتور/ محمود حمدي زقزوق

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ عبدالصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية





كلمات

* يقول الله سبحانه وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فأنس الله صفاتكم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » (١) .

* ويقول الإمام القرطبي (٦٧١هـ / ١٢٧٣م) في تفسير هذه الآية الكريمة : " إن في هذا التوجيه الإلهي من الفقه باب عظيم ، وهو أن الأحكام تُنَاط بالمظان والظواهر ، لا على القطع وإطلاع السرائر ، فإله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر " (٢) .

* وعن أسامة بن زيد - رضى الله عنه - قال : " بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصَبَحْنَا الخُرَقَات (مكان) من جهينة ، فأدركت رجلاً ، فقال : لا إله إلا الله ، فطمعته . فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ فقال : " أقال لا إله إلا الله ، وقتلته " ؟ !
قال ، قلت : يا رسول الله ، إنما قالها خوفاً من السلاح .

(١) النساء : ٩٤ .

(٢) (الجامع لأحكام القرآن) ج ٥ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، طبعة دار الكتب المصرية .

قال ﷺ : [أفلا شققت عن قلبه لتعلم أقالها أم لا ؟ !] .. فما زال يكررها حتى تعנית أنى أسلمت يومئذ [(١)] .

* وفي شرح هذا الحديث ، يقول الإمام النووي (٦٣١ ، ٦٧٦ هـ — / ١٢٣٣ ، ١٢٧٧ م) : " إنما كُلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه " .

* ويقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ ، ٥٠٥ هـ — / ١٠٥٨ ، ١١١١ م) : " إنه لا يسارع إلى التكفير إلا الجهالة .. وينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك ميلا ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة ، المصرحين بقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خطأ والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم " (٢) .

* ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ، ١٣٢٣ هـ — / ١٨٤٩ ، ١٩٠٥ م) : " إن الله لم يجعل للخليفة .. ولا القاضي .. ولا للمفتي .. ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام .. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو يفتاز به طريق نظره ..

(١) رواه مسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والإمام أحمد .

(٢) (الاقتصاد في الاعتقاد) ، ص ١٤٣ ، طبعة مكتبة صبيح ، ضمن مجموعة .

القاهرة بدون تاريخ .

فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعدة الحنة ،
والدعوة إلى الخير والتنفيز عن الشر ، وهي سلطة خولها الله لأدنى
المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من
أدناهم ..

وليس لمسلم ، مهما علا كعبه في الإسلام ، على آخر ، مهما
انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحة والإرشاد ..

ولقد اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا
صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الإيمان من
وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر .. (١) .

هكذا أعلن الإسلام — من خلال " البلاغ القرآني " .. و " البيان
النبوي " للبلاغ القرآني .. ومن خلال الفكر الإسلامي — ضرورة صيانة
الإيمان عن " التكفير العبثي " و " عبث التكفيريين " ١ .

المؤلف

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٣ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٩ ، دراسة
وتحقيق : د . محمد عمار ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

تمهيد

على النطاق العالمي . وفي مختلف القارات ، تتوجه الأمم والشعوب إلى التقارب والتساند والتضامن والاتحاد .. وذلك انطلاقاً من الضرورات الحياتية لهذه الأمم والشعوب ، واستجابة للحاجات المادية التي تستلزم تكامل الإمكانيات والثروات ومشروعات التنمية .. ولمواجهة التحديات - الداخلية والخارجية - التي تواجه هذه الأمم والشعوب ، إن في مجالات " الأمن " أو في مجالات " الاقتصاد " ..

وإذا كانت هذه الضرورات والحاجيات المادية والدينية " هي التي تدفع هذه الأمم والشعوب إلى التقارب والتضامن والتساند والاتحاد ، رغم ما بينها من اختلافات وتباينات دينية وثقافية ولغوية وقومية .. بل ورغم ما في تاريخها - البعيد والقريب - من حروب وصراعات .. فإن الحال مع شعوب الأمة الإسلامية - في ضوء هذه " الظاهرة العالمية " يدعو إلى الأسى والاستغراب ! ..

* فالمسلمون أمة واحدة .. قرر ذلك قرآنهم الكريم ، الذي هو البلاغ الإلهي الذي يحفظونه ، ويقدمونه .. وهم يتلونه في صلواتهم أثناء الليل وأطراف النهار يقول الله سبحانه وتعالى : لَا إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وأنا ربكم فاعبدون ﴿ ١١ 〉 . ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ (١) .

ووحدة هذه الأمة ، وما تنمى منها من ألفة وانسلاف هي " إرادة إلهية " و " صناعة ربانية " .. وليست مجرد " نزوع بشئى دنيوى " .. ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بتصره وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (٢) .

* وتاريخ هذه الأمة الإسلامية شاهد صدق ، يعلن بكل أسنة الحال والمقال أن وحدتها هي التى جعلتها — حتى عندما كانت قلة قليلة — تزيل " القوى العظمى " التى قهرت الشرق ونهبت لأكثر من عشرة قرون — قوى الفرس والروم — وتفتح فى ثمانين عاماً أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون ! .. وتبنى الحضارة الوسطية المتوازنة التى أنارت الدنيا وعلت الشعوب ، وجعلت المسلمين العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون ! .

* وهذه الوحدة ، هي ذاتها التى مكنت هذه الأمة من قهر التتار — الذين دوخوا الشعوب وأبادوا العمران — وقهروا الصليبيين الذين مثلت

(١) الأنبياء : ٩٢ .

(٢) المؤمنون : ٥٢ .

(٣) الأنفال : ٦٣-٦٢ .

حملاتهم التدميرية الاستيطانية أولى الحروب العالمية التي استمرت
قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م) ..

* ومع الفريضة الإلهية .. ومع شهادة التاريخ .. فإن واقع هذه الأمة
الإسلامية يصرخ بأعلى الأصوات ..

إن تمزق هذه الأمة ، وغيبة التضامن والتعاون والتكامل والاتحاد عن
شعوبها وأوطانها هو الذي مكن ويمكن منها الأعداء وشذاذ الأفاق !
فقرأتها منهوبة .. وأرضها ترزح تحت نير القواعد العسكرية
الأجنبية .. وبحارها وسحيطاتها تسرح وتمرح فيها الأساطيل المعادية ..

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد علمنا في قرآنه الكريم أن " التداول
سنة من سنن الله في الاجتماع الإنساني ، وغير تاريخ الأمم والحضارات
» .. وتلك الأيام تداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم
شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق
الكافرين » (١) . « وإن تتنوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا
أمثالكم » (٢) .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد علمنا أن هذا " التداول " هو الذي يجعل
خط سير التاريخ يأخذ شكل " الدورات " .. فكما يتم التداول بين الليل
والنهار ، كذلك يتم التداول بين العدل والجور .. وبين الصعود والهبوط ..

(١) آل عمران : ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) محمد : ٣٨ .

وبين التقدم والتخلف .. وبين النهوض والانحطاط .. وصلى رسول الله ﷺ إذ يقول : [لا يلبث الجور بعدى إلا قليلاً حتى يطلع ، فكلما طلع من الجور شئ ذهب من العدل مثله حتى يوك في الجور من لا يعرف غيره . ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل ، فكلما جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله ، حتى يوك في العدل من لا يعرف غيره] (١) .

إذا كان الحال كذلك .. وإذا كان الرسول ﷺ قد علمنا أن ' الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة ' .. وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة [لا تجتمع أمتي على ضلالة] (٢) .

فإن على أولى العزم والهمة من العلماء والمفكرين السعي بغير عنى تغوير الإسلام أن يهاجموا في سبيل توحيد أمة الإسلام ، لتكامل أوطان دار الإسلام ، ولتحرر أرضنا ومياهنا وثرواتنا ومخزاناتنا ومقدراتنا ، وليتولى أمرنا من يقتضون إلى هويتنا ، ويمنحون كامل الولاء لهذا الدين ، الذي جمع المؤمنين به على هذه الجوامع الخمسة :

- ١- وحدة العقيدة :
- ٢- وحدة الشريعة .
- ٣- وحدة الحضارة .
- ٤- وحدة الأمة .
- ٥- وحدة دار الإسلام .

(١) رواه الإمام أحمد

(٢) رواه الدارمي .

وإذا كانت " التعددية " وكان التمايز والاختلاف - في إطار وحدة هذه الجوامع الخمسة - هي " نعمة " من نعم الله التي جاء بها الإسلام .. فإن " النعمة " إنما تتجسد في الخلاف الذي يجعل بأس المسلمين بينهم شديداً .. وفي مقدمة أسباب هذه " النعمة " " نزعة التكفير " التي تقسم وحدة الأمة ، وتقسم العرب والوشائج التي ألف بها الإسلام بين قلوب المسلمين ..

لقد رسم القرآن الكريم صورة هذه الأمة ، كما أرادها الله سبحانه وتعالى عندما قال : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) (١) .

أما إذا شاعت " نزعة التكفير " بين مذاهب الأمة وفرقها وتياراتها ، فإن الباب سينفتح واسعا أمام الاختراقات المعادية التي تشهد الكثير منها هذه الأيام في العديد من بلاد الإسلام .. بل منصبح فرقاء من هذه الأمة أشداء على أمتهم رحماء على أعدائها .. ومتحالفين مع هؤلاء الأعداء !! . إن " سفينة " الأمة الإسلامية تتناوشها الأمواج العاصفة في محيط عالمي أعلنت القرونوية والقارونية الغربية فيه الحرب الصليبية على الإسلام وأمتة وحضارته وعالمه ..

وإن مذاهب هذه الأمة الإسلامية هي " الألواح " المكونة لهذه " السفينة " .. فهي لبنات عفل الأمة ووجدانها ، المحركة لعامتها وجمهورها ..

(١) الفتح : ٢٩ .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يعلمنا منياج الحفاظ على " سفينة الأمة " فيقول [مثل القانم على حدود الله والمدمن فيها كمثل قوم استهموا فسى سفينة فى البحر ، فأصاب بعضهم أسفلها وأصاب بعضهم أعلاها . فكان الذين فى أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين فى أعلاها فقال الذين فى أعلاها : لا تدعكم تصعدون فتؤذوننا ، فقال الذين فى أسفلها : فإنا ننبئها من أسفلها فنستخى . قال : [أى الرسول ﷺ] : فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعا ، وإن تركوهم غرقوا جميعا] (١) .

وهكذا يصنع " التكفير " عندما يخرق وحدة الأمة ، ويفكك مكونات " سفينتها " بينما تتناوشها الأسواج والتمزج فى محيط قد أعلنت قواه الكبرى الحرب الضروس على الإسلام والمسلمين .. ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾ (٢) .

لذلك .. وسعالجة هذه النزعة التدميرية — نزعة التكفير لأهل القبلة — ولمواجهة هذه الفتنة التى كانت قابضة فى بطون بعض الكتب المذهبية .. وفى عقول بعض الذين يرتزقون من التعصب المذهبى — والى أشاع الإعلام المعاصر بثورة الاتصالات — فاحشيتها بين العامة والجمهور .

(١) رواه البخارى والترمذى والإمام أحمد .

(٢) الكيف : ٧٩ .

ولمعالجة هذه " النزعة " .. وهذه الفتنة " يجب أن يتداعى العلماء
والمفكرون المزابيون على ثغور وحدة الإسلام وأمنه وحضارته ..
وفي سبيل ذلك يصدر هذا الكتاب . الذي نسأل الله سبحانه
وتعالى : أن يتقبله خالصا لوجهه .. وأن ينفع به .. إيمه سبحانه أفضل
مسئول وأكرم مجيب ..،

حتى يكون التقريب حقيقةً

في الحديث عن التقريب بين المذاهب الإسلامية . هناك خلط بين المفاهيم المرادة من وراء المصطلحات التي يستخدمها الباحثون في هذا الميدان .. "فالتقريب" بين المذاهب غير "التوحيد" للمذاهب .. وكلاهما متميز عن "احتضان" جميع المذاهب والاستفادة من الملائم في أحكامها واجتهادات مجتهدينا .

ثم إن "المذاهب" قد يراد بها "المذاهب الفقهية" .. وقد يراد بها "المذاهب الكلامية" لذلك ، لابد من البدء بتحديد وتحريير مضامين ومفاهيم كل مصطلح من هذه المصطلحات ..

* "فالتقريب" : هو الانطلاق من تمايز المذاهب المتعددة والمختلفة ، والحفاظ على تمايزها واختلافها ، مع العلول عن نفى مذهب للمذاهب الأخرى ، بالتعصب لمذهب واحد ، ورفض ما عداه .. فهو - التقريب - تعايش بين المذاهب المختلفة ، مع اكتساف الإطار العام الجامع لها ، ومناطق الاتفاق بينها ، وتحديد مناطق التمايز والاختلاف .

* أما "التوحيد" بين المذاهب : فإنه يعني دمجها جميعاً في مذهب واحد ، وتقي قاعدة التعدد والتمايز والاختلاف ..

* وبين هذين المصطلحين يأتي "الاحتضان" والاستفادة من المذاهب المختلفة والتمايز ، باعتبارها اجتهادات إسلامية في إطار علم

واحد وحضارة واحدة ودين واحد ، والنظر إلى الأحكام التي أشرتها الاجتهادات المذهبية المختلفة باعتبارها التراث الواحد للأمة الواحدة ، ومن ثم الاستفادة بالملامح منها ، الذي يلبي حاجات تحقيق المصالح والضرورات المتجددة بحكم تمايز الزمان والمكان وتنوع العادات والتقاليد والأعراف .. أى توسيع دائرة الترجيح بين الأحكام والاجتهادات من نطاق المذهب الواحد إلى جملة المذاهب كلها ومفهوم " الاحتضان " هذا من الممكن أن يكون ثمرة من ثمرات " التقريب " ..

* أما مصطلح " المذاهب " ، فإنه يطلق على المذاهب الفقهية ، التي هي علم الفروع والاجتهادات الفقهاء في إطار الشريعة الإسلامية الواحدة التي هي وضع إلهي ثابت عبر الزمان والمكان .. وقد يطلق هذا المصطلح " المذاهب " على المذاهب الكلامية ، أى التصورات والاجتهادات التي أبدعها علماء أصول الدين في إطار المقائد الإسلامية ، وخاصة " الأكوهية " وصفات " الذات الإلهية " .. و " النبوات والرسالات " وما يتعلق بها من المعجزات .. و " فلسفة العلاقة بين الحق والخلق " ، وما يتعلق بها من مكانة الإنسان في الكون ، وأفعال هذا الإنسان .. إلخ .. هذا عن ضبط مفاهيم ومضامين مصطلحات هذا المبحث من سياحت الفكر الإسلامى .

أما عن التاريخ الحديث للجهود والدعوات التي بذلت وقامت للتقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية بهدف الخروج من التعصب لواحد منها ضد ما عداه ، والاستفادة من كل الاجتهادات فيها ، لتلبية احتياجات التشريع

للمستجدات العصرية ، فلعل دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ هـ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) في التقرير الذي كتبه لإصلاح القضاء الشرعي - أن تكون أبرز هذه الدعوات في عصرنا الحديث .
 لاحتضان كل مذاهب الفقه الإسلامي ، والاستفادة من اجتهاداتها في القضاء والتقنين الحديث لفقه الشريعة الإسلامية .. فلقد كانت الدولة العثمانية (٦٦٩ - ١٣٤٢ هـ / ١٢٧٠ - ١٩٢٢ م) تلتزم المذهب الحنفي وحده . وبفقيه وحده يحكم القضاء ويفتي المفتون في ولاياتها ، رغم تمذهب الناس فيها بالمذاهب السنية الأربعة : - الحنفي .. والمالكي .. والشافعي .. والحنبلي .. وللمذهب الحنفي وحده تم التقنين في مجلة الأحكام العدلية * سنة ١٢٨٦ هـ ، سنة ١٨٦٩ م .. فلما درس الإمام محمد عبده حال القضاء الشرعي بمصر ، دعا في التقرير الذي كتبه - في نوفمبر سنة ١٨٩٩ م - إلى إصلاح حال هذا القضاء وفقهه .. ودعا إلى احتضان كل المذاهب الفقهية والاستفادة من اجتهادات جميع مجتديها ، لما في ذلك من فتح باب الاجتهاد بالترجيح بين الأحكام جميعها ، والتيسير على الناس ، وتلبية حاجات المستجدات (١) .

ولقد كانت حركة التقنين للفقه الإسلامي بمصر ، في مقدمة الحركات التي وضعت دعوة الإمام محمد عبده في الممارسة والتطبيق .. ففي التعديلات التي أدخلت على بعض مواد قوانين الأسرة - الأحوال الشخصية - تمت الاستفادة من المذاهب الفقهية المختلفة . بما في ذلك

(١) (الأعمال الكاملة) ج ٢ ، ص ٢٠٩ - ٢٨٨ .

المذهب الجعفري — الشيعة الإثني عشرية — والمذهب الزيدي — للشيعة الزيدية ..

ولما قامت مصر بإصدار موسوعة الفقه الإسلامي — موسوعة جمال عبد الناصر — اعتمدت كل المذاهب الفقهية الموثقة مصادرهما ، واحتضنت أحكامها واجتهادات مجتهديهما جميعاً — وهي المذاهب السنية الأربعة .. مع المذهب الجعفري ، والمذهب الزيدي ، والمذهب الإباضي ، والمذهب الظاهري .. فكانت " للفقه المصري " — إذا جاز التعبير — الريادة في انتاج هذا الطريق ، الذي لا يكتفي ، فقط ، " بالتقريب " بين المذاهب الفقهية ، أي رفض التعصب لمذهب واحد ضد ما عداه . وإنما تجاوز " الموقف المصري " هذا " التقريب " إلى " احتضان " كل المذاهب ، والعمل على الاستفادة من الملائم المطبق لاحتياجات الأمة وسبلتجات العصر من اجتهادات المذاهب الفقهية جميعها ..

وفي أربعينيات القرن العشرين ، قامت في مصر " جماعة التقريب بين المذاهب " مركزة جهودها على مذاهب السنة والشيعة الإمامية بوجه خاص ..

ولقد رأس هذه الجماعة الزعيم المصلح محمد علي عطية باشا (١٢٩٢ — ١٣٧٥هـ / ١٨٧٥ — ١٩٥٦م) .. وكان في مقدمة مؤسسيها والعاملين في ميدان جهودها الفقهية والفكرية الأئمة والعلماء الأعلام : الشيخ عبد المجيد سليم (١٢٩٩ — ١٣٧٤هـ) والشيخ محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨ — ١٣٦٤هـ / ١٨٨١ — ١٩٤٥م) والشيخ

مصطفى عبد الرزاق (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ / ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م)
 والشيخ محمود شلتوت (١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ / ١٨٩٣ - ١٩٦٣ م)
 والشيخ محمد المنذرى (١٣٢٥ - ١٣٨٨ هـ / ١٩٠٧ - ١٩٦٨ م)
 والشيخ على الخفيف (١٣٠٨ - ١٣٩٨ هـ / ١٨٩١ - ١٩٧٨ م)
 والشيخ عبد العزيز عيسى (١٣٢٧ - ١٤١٥ هـ / ١٩٠٩ - ١٩٩٤ م)
 والشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) والشيخ
 سيد سابق .. وغيرهم من أئمة علماء السنة .

كما صمت هذه اللجنة - فى إطار " دار التقريب " - كوكبة من
 كبار علماء الشيعة الاثنى عشرية .. من مثل آية الله أفاحسين البروجردى
 .. والسيد محمد تقى الدين القمى - الذى تولى الأمانة العامة للجماعة -
 والسيد محمد الحسينى آل كاشف الغطاء . والسيد شرف الدين الموسوى ..
 والسيد محمد جواد مغنية . والسيد صدر الدين شرف الدين .. وغيرهم .
 وكانت مجلة " رسالة الإسلام " لسان حال هذه الجماعة . من أبرز
 النماذج الفكرية التى تجسدت فيها الجهود التى بذلت فى هذا اللون من
 التقريب بين المذاهب الإسلامية .. وفى إزالة الشبهات والعقبات من عيادين
 العلاقة بين السنة والشيعة على وجه الخصوص ..
 كذلك كانت جهود الشيخ محمود شلتوت من أبرز ما تمخضت عنه
 اجتهادات هذا اللون من التقريب بين المذاهب الفقهية .. فلقد كتب عن
 مقاصد هذه الدعوة ، وجهود هذه الجماعة فقال :

" إن دعوة التقريب هى دعوة التوحيد والوحدة ، هى دعوة السلام
 والإسلام .. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة

المستقيمة على نهج الإسلام ، والتي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا
الفقهى ، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة . ويربسون
بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول ، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق
الذى لا ريب فيه ، وأن على سائر الناس أن يتبعوه . ولكن يقول : " هذا
مذهبي . " وما وصل إليه جهدي وعظمي . ولست أبيع لأحد تقليدي
واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت ، فإن الدليل إذا استقام
فهو عمدي ، والحديث إذا صح فهو مذهبي . "

" ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم ، وأسهمت منذ أول يسوم
في جماعتها ، وفقى وجود نشاط دارها بأمور كثيرة ، ثم تهيأ لى بعد
ذلك . وقد عهد إلى بمصنّب مبيخة الأزهر . أن أصدرت فتاوى في جواز
التعب على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول . المعروفة المصادر .
المتبعة لسبيل المؤمنين . ومنها مذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية ..
وقرت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المختصين الذين لا هدف لهم
إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة . وظلت تتوارد الأسئـة والمشاورات
والمجادلات في شأنها وأنا مؤمن بصحتها ، ثابت على ركنها . وأزيدها
في الحين بعد الحين فيما أبعث به من رسائل إلى المتوضحين : لو أردت به
على شبه المعترضين ، وفيما أنشئ من مقال ينشر أو حديث يذاع أو
بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والاتفاق حول أصول الإسلام .
ونسوان الضعاف والأحقاد ، حتى أصبحت - والحمد لله - حقيقة مقررة
تجرى بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة . بعد أن كان المرجثون في

مختلف عهود الضعف الفكري والخلاف الطائفي والنزاع السياسي ،
 يثيرون في موضعها الشكوك والأوهام بالباطل ، وهذا هو ذا الأزهر
 الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب
 المختلفة ، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية سنيها وشيعيتها ،
 دراسة تعتمد على الدليل والبرهان . وتخلو من التعصب لفلان
 وفلان " (١) .

لقد سئل الشيخ محمود شلتوت - وهو الإمام الأكبر شيخ الأزهر :
 " إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكي تقع
 عبادته ومعاملاته على وجه صحيح ، أن يقلد أحد المذاهب الأربعة
 المعروفة ، وليس من بينها مذهب الشيعة ، فهل توافقون فضيلتكم على هذا
 الرأي على إطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإثنا عشرية مثلاً ؟ " .
 فكان جواب الشيخ شلتوت على هذا السؤال :

" إن الإسلام لا يوجب على أحد اتباع مذهب معين ، بل نقول : إن
 لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة
 نقلاً صحيحاً ، والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة ، ولمن قلد مذهباً من
 هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره - أي مذهب كان - ولا حرج عليه في
 شيء .

(١) على عبد العظيم (شيخ الأزهر) ج ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، طبعة القاهرة سنة
 ١٣٩٩ هـ ، سنة ١٩٧٩ م .

إن مذهب الجعفرية ، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية ، مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة ، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب ، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز - لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد - تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم . ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات .^(١)

ذلك هو نصر فتوى الشيخ شلتوت في التقريب بين المذاهب الفقهية .. وفي جواز التعبد والتعامل وفق أحكامها جميعاً دون تعصب لمذهب ضد ما عداه .. وجواز التعبد والتعامل - من قبل أهل السنة - وفق فقه المذهب الجعفرى للشيعة الإمامية الإثنا عشرية على وجه التحديد .. ورغم أن هذه الفتوى قد وجدت صدى عظيمًا وواسعًا ومستمرًا في الدوائر الشيعية ، ورفعت من مقام الشيخ شلتوت في هذه الدوائر ، حتى لقد تم الاحتفال به وبأية الله البروجردى - في طهران سنة ٢٠٠١ م . ولقد ترجم علماء الشيعة فتواه هذه إلى مختلف اللغات .. إلا أنه لم تصدر فتوى مناظرة لها من أى مرجع من مراجع الشيعة ، ولم يفت واحد من هؤلاء العلماء الأعلام بجواز تعبد وتعامل المسلم الشيعى وفق فقه المذاهب الفقهية السنية ، حتى يكون التقريب متبادلاً بين الأطراف المتعددة ، وليس من طرف واحد لحساب الطرف الثانى !!

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٨٨ .

بل إن دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية الصادر بعد الثورة الإسلامية — قد ذهب إلى الحد الذي جعل المذهب الجعفرى وحده هو مذهب الدولة ، ونص على أن المادة التى تقرر ذلك لا يجوز تغييرها فيما يطرأ على مواد هذا الدستور من تغييرات ! .. الأمر الذى يجعل قضية التقريب بين المذاهب الفقهية قائمة على ساق واحدة ، ومن طرف واحد حتى كتابة هذه السطور ! ..

وإذا كانت لنا من ملاحظات على هذه الجهود العلمية العظيمة التى بذلتها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، والتى أثمرت ثمرات طيبة فى ميدان التقريب بين السنة والشيعة — وهى الجهود التى يحاول مواصلة قدر الإمكان .. وعلى نحو من الأنحاء " التجميع العالمى للتقريب بين المذاهب " — بطهران — فإن هذه الملاحظات يمكن إجمالها فى هذه النقاط :

أولاً : إن توجيه جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى التقريب بين المذاهب الفقهية ، هو جهاد فى غير الميدان الحقيقى الأولى بالجهاد .. أو — على أحسن الفروض — هو جهاد فى الميدان الأسهل ، الذى لا يمثل المشكلة الحقيقية فى الخلافات بين المذاهب الإسلامية .. وبين السنة والشيعة على وجه التحديد — فالفقه هو علم الفروع .. وكلما زاد الاجتهاد والتجديد فى الفقه الإسلامى كلما تمايزت الاجتهادات فى الأحكام الفقهية .. ففتح الأفاق أمام تمايزات الاجتهادات هو الذى يحرك العقل الإسلامى المجتهد ،

ورئيس التقريب — فضلاً عن التوحيد لهذه الاجتهادات — فقط نريد احتضان
الاجتهادات المذهبية والفقهية المتنوعة ، والاستفادة بالملامح من احكامها
للتيسير على الناس ، ولمواكبة المستجدات ..

وثانياً : إن الفقه هو علم الفروع .. وتميز الاجتهاد فيه واختلاف
المجتهدين في احكامه لم يكن في يوم من الأيام يمثل مشكلة لوحدة
الأمة ، بل كان مصدراً غنياً واثراً للعقل الفقهي والواقع الإسلامي على
السواء .. وفي الفقه كان الأئمة والعلماء ، والمختلفون في المذاهب ، يتكلمون
الواحد منهم على من يخالفه في المذهب .. بل ورأينا في تراثنا من العلماء
الأعلام من يجمع المذاهب المتعددة في فقيه وعطاءه ، فيفتي وفق مذهب ،
ويقضي وفق مذهب ثان ، ويُدرس كل المذاهب لطلاب علمه ومريديه ! ..
فاختلاف المذاهب الفقهية هو ظاهرة صحية في الفكر الإسلامي ،
وهو مصدر من مصادر الثغنى والثراء لهذا الفقه ، ولا يمثل أية مشكلة
لوحدة أمة الإسلام .. ومن ثم ، فليس هو الميدان الحقيقي والأولى للجihad
الفكري في التقريب بين مذاهب المسلمين ..

وثالثاً : إن الميدان الذي كان ولا يزال يمثل مشكلة لوحدة الأمة
— التي هي فريضة إلهية وتكليف قرآني — هو ميدان بعض الاجتهادات
المذهبية في المذاهب انكلامية الإسلامية .. وعلى وجه التحديد أحكام
" التكفير " و " التفسيق " التي نجدها في تراث هذه المذاهب والتي
ارتبطت بقضية الإمامة على سبيل الحصر والتحديد ..

إن اختلاف مذاهب الفقه — السنية والشيعة — حول " نكاح المتعة " مثلا ، لا يمثل مشكلة تقسم وحدة الأمة الإسلامية .. لكن الاجتهادات التي تكفر الصحابة الذين أخرجوا خلافة علي بن أبي طالب هي التي تهدد وحدة الأمة منذ عصر الخلافة وحتى هذه اللحظات ..

ومثلها الاجتهادات التي تكفر الشيعة في بعض كتب التراث السني ، كما هو الحال عند شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ — ١٣٢٨ م) وبعض الأئمة " السلفيين " ويضاف إلى هذه المسائل بعض الآراء التي توهم التجسيد والتشبيه للذات الإلهية .. وبعض المواقف الحادة في ميدان التصوف والصوفييين .

فالتقريب بين المذاهب ، والذي يمثل الميدان الحقيقي للجهاد الفكري المطلوب ، هو الذي يوحد الأمة في الأصول والنوازل .. وفي أمهات العقائد والمسائل الفكرية .. وهذا هو ميدان علم الكلام .. والجهاد التقريبي — انغائب والمطلوب — هو نزع " الألغام الفكرية — التكفيرية " التي تقسم وحدة الأمة بالتكفير لفريق من الفرقاء أو مذهب من المذاهب ، لأن التكفير هو نفى الآخر ، يقسم وحدة الأمة .. وهو خطر لا علاقة له بالفقه ، الذي هو علم الفروع ، ولا بالاجتهادات والاختلافات الفقهية ، التي هي ظاهرة صحية ، تنمّر الغنى والثراء في الأحكام ، والسير والسعة للأمة كلها في تطبيق هذه الأحكام ..

* وإذا كانت هذه " الألغام الفكرية — التكفيرية " ، التي تتغذى بها وعليها عقول قطاعات من العلماء في بعض الحوزات العلمية ، وفي بعض

المؤثر الفكرية السنية .. كما تتغذى عليها نزعات التعصب عند العامة ..
إذا كانت هذه " الألغام " قد غدت راسخة ، بل و " متكلسة " .. فإن
الموقف الممكن والعملى إزاءها يمكن تصوره فيما يلى :

١- تحديد نطاق هذه " الألغام الفكرية التكفيرية " وأغلبها - لحسن
الحظ - تابع من نقل القضايا الخلافية من نطاق " الفروع " إلى نطاق
" أصول الاعتقاد " ، وتحويلها - من ثم - إلى عوامل " نفي .. وتكفير "
للمخالفين ..

٢- اعتماد منهاج وسنة التدرج فى تطبيق خطوة إزالة هذه "
الآلغام الفكرية - التكفيرية " من الكتب التراثية ، وخاصة الذى يدرس
منها فى الحوزات العلمية والجامعات الإسلامية ، وذلك بحذفها من
الطبعات الجديدة لكتب التراث هذه .. وفق المنهاج المتعارف عليه فى "
تهذيب " كتب التراث ..

٣- الاتفاق : فى إطار حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية على
منع تدريس هذه " الاجتهادات التكفيرية " فى الحوزات والجامعات
الإسلامية التى تكون عقول العلماء فى مختلف بلاد الإسلام ولنا فى منهاج
الأزهر الشريف النموذج والقدوة فى هذا الميدان ، فهو يحتضن كل مذاهب
الأمة - الفقهية والكلامية - سلفها وخلفها على حد سواء ، مع استبعاد
التكفير والنسب لآى مذهب من المذاهب أو فرقة من الفرق الإسلامية ،
حفاظاً على وحدة الأمة ، التى هى فريضة إلهية ، تعلو فوق اجتهادات
المجتهدين ومذاهب المتمذهبين ..

وصدق الله العظيم في قوله : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّةُ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَسُومُهَا عَابِدُونَ ﴾ (١) .

ذلك هو الميدان الحقيقي للجهاد الفكري في التقريب بين المذاهب الإسلامية .. إنه علم الكلام .. علم الأصول في الاعتقاد .. وليس علم الفقه والمذاهب الفقهية ، التي تخصص في الفروع ، واختلافاتها رحمة واسعة ولا تفسد الود بين المسلمين ..

(١) الأنبياء : ٩٢ .

مقال فى التحذير من التكفير

لأهل السنة والجماعة - الذين يمثلون ٩٠% من المسلمين - موقف واضح وحاسم وثابت فى رفض التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ما دام قائماً بحقوق هذه الشهادة ، التى هى شعار الإسلام .. العاصمة للدماء والأموال والحقوق .

وعن هذا الموقف الواضح والحاسم والثابت يعبر حجة الإسلام أبو حامد الغزالى ، فيقول : ' واعلم أن حقيقة الكفر والإيمان وحدهما . والحق والضلال وسرهما . لا ينجلى للقلوب المدنسة بطلب المال والجاة وحبهما . بل إنما ينكشف ذلك لقلوب طهرت عن وسخ أو ضار الدنيا أولاً ، ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانياً ، ثم نورت بالذكر الصافى ثالثاً ، ثم غذيت بالفكر الصائب رابعاً ، ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامساً . حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة ، وصارت كأنها مرآة مجلوة . وصار مصباح الإيمان فى زجاجة قلبه مشرق الأنوار ، يكاد زيتہ يضىء ولو لم تمسه نار .

وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ، وعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنائيرهم ، وشريعتهم رعونتهم . وإرادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم ، وذكرهم

وساوسهم ، وكفزهم سواوسهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه
حشمتهم ؟ .

فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان ؟ أبالهام
إلهي ولم يفرغوا القنوب من كدورات الدنيا لقبولها ؟ أم بكمال علمي ،
وإنما بضاعتهم في العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالهما ؟
هيهات هيهات : هذا المطلب أنفس وأعز من أن يترك بالمعنى ، أو
ينال بالهوي ، فاشتغل أنت بشأنك ، ولا تضيع فيهم بقية زماتك
» فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم
من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن
اهتدى « (١) .

.. ولعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفاً على واحد من
النظار يعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب .

أما الكفر ، فلائه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل ، الذي
لا يشبه الإيمان إلا بموافقته ، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته .

وأما التناقض ، فهو أن كل واحد من النظائر يوجب النظر ، وأن
لا ترى في نظرك إلا ما رأيت ، وكل ما رأيت حجة ، وأي فرق بين من

حجة

(١) الإسلام ، أبو حامد الغزالي ، (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ، ص ٣ .

طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ، سنة ١٩٠٧ م . والأيتان من سورة النجم : ٣٠ ، ٢٩ .

يقول : قلدني في مجرد مذهبي ، وبين من يقول : قلدني في مذهبي
ودليلى جميعاً ؟ وهل هذا إلا التناقض ؟

...

" (و) لعلك تشتهي أن تعرف حد الكفر بعد أن تتناقض عليك حدود
أصناف المقلدين ، فاعلم أن شرح ذلك طويل ، ومدرسه غامض ، ولكني
أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوى
بسببها عن تكفير الفرق وتطويل اللسان في أهل الإسلام وإن اختلفت
طرقهم ، ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ،
صادقين بها ، غير منافضين لها ، فأقول :

الكفر : هو تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام في شيء
مما جاء به .

والإيمان : تصديقه في جميع ما جاء به .

قالوا : وكيف يمكن التكذيب في شيء من كلامه عليه السلام
وذلك من كلامه لا من كلام غيره ؟ فقلت : إن كلامه عليه السلام
هو كلام الله ، فكيف يمكن التكذيب في كلام الله ؟
فقلت : لا يمكن .

قالوا : وكيف يمكن التكذيب في شيء من كلامه عليه السلام
وذلك من كلامه لا من كلام غيره ؟ فقلت : إن كلامه عليه السلام
هو كلام الله ، فكيف يمكن التكذيب في كلام الله ؟
فقلت : لا يمكن .

هذه المعاني ، ويزعم أن ما قاله الرسول ﷺ لا معنى له ، وإنما هو كذب محض ، وغرضه مما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا ، وذلك هو الكفر المحض والزندقة .

ولا يلزم كفر المتأولين ، وما من فرقة من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه . فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل رحمة الله عليه ، وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازاً أو استعارة ، وهو الوجود العقلي والوجود الشبهي ، والحنبلي مضطر إليه ، وقائل به ، فقد سمعت الثقات من أئمة الحنابلة يبيحون أن أحمد بن حنبل رحمه الله صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط .. لأنه لم يكن ممعناً في النظر العقلي .

والأشعري والمعتزلي لزيادة بحثهما ، تجاوزاً إلى تأويل ظواهر كثيرة ، وأقرب الناس إلى الحنابلة في أمور الآخرة الأشعرية — وفقهم الله — فإنهم قرروا فيها أكثر الظواهر إلا يسيراً والمعتزلة أشد منهم توغلاً في التأويلات .. (١) .

ومن الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع ، ولا ينبغي أن يبادر أيضاً إلى كفره في كل مقام ، بل ينظر فيه ، فإن كان تأويله في أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها فلا نكفره .. ولعل الظن في مثل هذه الأمور التي لا تتعلق بأصول الاعتقاد يجري مجرى البرهان في أصول الاعتقاد فلا يكفر فيه ولا يبدع .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٠٠ ، ٩٠٥ .

نعم ، إن كان فتح هذا الباب يؤدي إلى تشويش قلوب العوام فيبذع به . . . وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من بغير الظاهر بعير برهان قاطع ، كالذي ينكر حشر الأجساد ، وينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من ضير برهان قاطع ، فيجب تكفيره قطعاً ، إذا لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد ، وذكر ذلك عظيم الضرر في الدين ، فيجب تكفير كل من تعلق به . وهو مذهب أكثر الفلاسفة .

وكذلك يجب تكفير من قال منهم إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه ، أو لا يعلم إلا الكلبيات ، فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا يعلمها . لأن ذلك تكذيب للرسول ﷺ قطعاً ، وليس من قبيل الدرجات التي نكرناها في التأويل ..

والزندقة المطلقة : أن تنكر أصل المعاد عقلياً وحسبياً ، وتنكر الصانع للعالم أصلاً ورأساً .

وأما إثبات المعاد بنوع عقلي مع نفى الآلام والذات الحسية ، وإثبات الصانع مع نفى علمه بتفاصيل العلوم فهي زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الأنبياء (١) .

.. وأعلم أن شرح ما يكفر به وما لا يكفر به يستدعي تفصيلاً طويلاً .. فائقع الآن بوصية وقانون :

(١) انظر السابق ، ص ١٣ - ١٥ .

أما الوصية فإن تكفأ نساك عن أهل القبلة ما أمكنك ما دامسرا
قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله . غير منافضين لها ، والمنافضة :
تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بغير أو غير عذر . فإن التكفير فيه
خطر ، والسكوت لا خطر فيه .

وأما القانون : فهو أن تعلم أن النظريات قسمان . قسم يتعلق
بأصول الفروع ، وقسم يتعلق بالفروع . وأصول الإيمان ثلاثة : الإيمان
بالله ، وبرسوله ، وباليوم الآخر ، وما عداه فروع .

وأعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في مسألة واحدة وهي أن
ينكر أصلاً ديننا علم من الرسول ﷺ بالتواتر ، ولكن في بعضها تخطئة ،
كما في الفقهيات ، وفي بعضها تبديع ، كالخطا المتعلق بالإمامة وأحوال
الصحابة .

وأعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها
لا يوجب شيء منه التكفير .. ولا يلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة
ويجعلون الإيمان بالإمام مقروناً بالإيمان بالله وبرسوله ولا إلى خصومهم
المكفرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة ، فكل ذلك إسراف . إذ ليس قس
واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ أصلاً ، ومتى وجد التكذيب وجب
التكفير وإن كان في الفروع ..

نعم ، لو انكر ما ثبت بأخبار الاتحاد فلا يلزمه به الكفر ، ولو أنكر
ما ثبت بالإجماع فهذا فيه نظر . لأن معرفة كون الإجماع حجة قاطعة فيه
غرض يعرفه المحصلون لعلم أصول الفقه .. فهذا حكم الفروع .

وأما الأصول الثلاثة ، وكل ما لا يحتمل التأويل في نفسه ، وتواتر نقله ، ولم يتصور أن ينضم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض (١) .

ولا ينبغي أن يظن أن التكفير ونفيه ينبغي أن يدرك قطعاً في كل مقام . بل التكفير حكم شرعي يرجع إلى إباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود في النار ، فماخذ كماخذ سائر الأحكام الشرعية فتارة يدرك بيقين وتارة بظن وتارة يتردد فيه ومتى حصل تردد فالوقف فيه عن التكفير أولى ، والمبادرة إلى التكفير إنما يغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل .

ولابد من التنبيه على قاعدة أخرى ، وهو أن المخالف قد يخالف نصاً متواتراً ويزعم أنه مؤول ، ولكن ذكر تأويله لا انقذاح له أصلاً في اللسان ، لا على بعد ولا على قرب ، فذلك كفر ، وصاحبه مكذب وإن كل من يزعم أنه مؤول ، مثاله : ما رأيته في كلام بعض الباطنية أن الله تعالى واحد بمعنى أنه يعطي الوحدة ويخلقها ، وعالم بمعنى أنه يعطي العلم لغيره ويخلقها ، وموجود بمعنى أنه يوجد غيره ، وأما أن يكون واحداً في نفسه وموجوداً وعالماً على معنى اتصافه فلا ، وهذا كفر صراح ، لأن حمل الوحدة على إيجاد الوحدة ليس من التأويل في شيء ، ولا تحتمله لغة العرب أصلاً . ولو كان خالق الوحدة يسمى واحداً لخلقته الوحدة تسمى ثانياً وأربعاً لأنه خلق الأعداد أيضاً . فأمثلة هذه المقالات تكذيبات غيبيتها بالتأويلات ..

(١) المصدر السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

ومعرفة ما يقبل التأويل وما لا يقبل التأويل ليس بالهين ، بل لا يستقل به إلا الماهر الحاذق فى علم اللغة ، العارف بأصول اللغة ، ثم بعادة العرب فى الاستعمال فى استعاراتها وتجاوزاتها ومنهاجها فى ضروب الأمثال^(١) .

* * *

وإن ما لا يعظم ضرره فى الدين فالأمر فيه سهل وإن كان القول شنيعاً وظاهر البطلان ، كقول الإمامية المنتظرة إن الإمام مختلف فى رداب فاته ينتظر خروجه ، فاته قول كاذب ظاهر البطلان ، شنيع جداً ، ولكن لا ضرر فيه على الدين ، إنما الضرر على الأحقق المعتقد لذلك ، إذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الإمام حتى يدخل فيرجع إلى بيته خاسئاً — وهذا مثال — والمقصود : أنه لا ينبغي أن يكفر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان .

فإذا فهمت أن النظر فى التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التى لا يستقل بأحاديها المبرزون ، علمت أن المعيار إلى تكفير من يخالف الأشعرى^(٢) أو غيره ، جاهل مجازف ، وكيف يستقل الفقيه بمجرد الفقه بهذا الخطب العظيم ؟ وفى أى ربع من أرباع الفقه يصادف هذه العلوم ؟ فإذا رأيت الفقيه الذى يضاعته مجرد الفقه يخوض فى التكفير والتضليل فأعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك ، فإن النحوى بالعلوم

(١) انظر السابق ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) هو أبو الحسن الأشعرى (٢٦٠ - ٣٢٤ هـ / ٨٧٤ - ٩٣٦ م) إمام أهل السنة والجماعة .. والأشعرية مع الماتريدية - نسبة إلى الماتريدى (٣٢٣ هـ / ٩٤٤ م) يمثلون الجمهور الغالب من أهل السنة والجماعة .

عريضة في الطبع لا يصبر عنه الجبال ، ولأنه كثر الخلاف بين الناس .
ولو بنعت من الأيدي من لا يدري لملّ الخلاف بين الخلق (١) .

والحق الصريح أن كل من اعتقد ما جاء به الرسول عليه الصلاة
والسلام واشتمل عليه القرآن اعتقاداً جزماً فهو مؤمن وإن لم يعرف
أنته ، بل الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جداً ، مشرف على
الزوال بكل شبهة (٢) .

وأنا أقول :

إن الرحمة تشمل كثيراً من الأمم البائسة ، وإن كان أكثرهم
يعرضون على النار إما عريضة خفيفة حتى في لحظة أو ساعة وإما في
مدة حتى يطلق عليهم اسم بُعث النار .

بل أقول : إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشبه
الرحمة إن شاء الله تعالى ، أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك ولم
تبلغهم الدعوة ، فإنهم ثلاثة أصناف :

صنف لم يبلغهم اسم محمد ﷺ أصلاً ، فهم معذرون .

وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات ، وهم

المعذرون ببلاد الإسلام والمخالفون لهم ، وهم الكفار الملحون .

(١) (فصل الفرق) ، ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١ - ٢٢ .

وصنف ثالث بين الدرجتين ، بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم تعبه وصفته بل سمعوا أيضا - منذ الصبا - أن كذابا ملئسا اسمه محمد ادعى النبوة ، كما سمع صبياننا أن كذابا يقال له المقفع^(١) بعث الله تحدى بالنبوة كاذبا ، فهو لاء عندى فى معنى الصنف الأول ، فإنهم مع أنهم سمعوا اسمه سمعوا ضد أوصافه ، وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطالب ..

وأما سائر الأمم ، فمن كذبه بعد ما قرع سمعه التواتر عن خروجه وصفته ومعجزته الخارقة للعادة ، كشق القمر ، وتسييح الحصى ، ونبيع الماء من بين أصابعه ، والقرآن المعجز الذى تحدى به أهل الفصاحة وعجزوا عنه ، فإذا قرع ذلك سمعه فأعرض عنه وتولى ولم ينظر فيه ولم يتأمل ولم يبادر إلى التصديق ، فهذا هو الجاهد الكاذب ، وهو الكافر ، ولا يدخل فى هذا أكثر الروم والترك الذين بعدت بلادهم عن بلاد المسلمين .

بل أقول : من قرع سمعه هذا فلا بد أن تتبعته به داعية الطالب ليستبين حقيقة الأمر إن كان من أهل الدين ، ولم يكن من الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فإن لم تتبعته هذه الداعية فذلك لركونه إلى الدنيا . وخلوه عن الخوف ، وخطر أمر الدين ، وذلك كفر .

(١) أبى عبد الله بن المقفع (١٠٦ - ١٤٢ هـ / ٧٢٤ - ٧٥٩ م) اتهم بالزندقة ، وقتله المهدي العباسي - فى البصرة - فى ولاية أميرها سفيان بن معاوية المهلبى .

وإن اتبع الداعية فقصر في الطلب ، فهو أيضا كافر ، بل ذو الإيمان بالله واليوم الآخر من أهل كل ملة لا يمكنه أن يفتر عن الطلب بعد ظهور المخاليل بالأسباب الخارقة للعادة .

فإن اشتغل بالنظر والطلب ولم يقصر فأدركه الموت قبل تمام التحقيق فهو أيضا مغفور له ، ثم له الرحمة الواسعة ، فاستوسع رحمة الله تعالى ولا تزن الأمور الإلهية بالموازين المختصرة الرسمية ..

والمخادون في النار بالإضافة إلى الناجيين والمفرجين منها في الآخرة نادر ، فإن صفة الرحمة لا تتغير باختلاف أحوالنا ، وإنما الدنيا والآخرة عبارتان عن اختلاف أحوالك ، ولولا هذا لما كان نقولاه عليه الصلاة والسلام معنى حيث قال : " أول ما خط الله في الكتاب الأول : أنا الله لا إله إلا أنا ، سبقت رحمتي غضبي " فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فله الجنة ..

فابشر برحمة الله وبالنجاة المطلقة إن جمعت بين الإيمان والعمل الصالح ، وبالهلاك المطلق إن خلوت عنهما جميعا ، وإن كنت صاحب يقين في أصل التصديق وصاحب خطأ في بعض التأويل أو صاحب شك فيهما أو صاحب خلط في الأعمال فلا تطمع في النجاة المطلقة " (١) .

...

" .. واعلم أن للفرق في (التكفير) مبالغات وتعصبات ، فربما انتهى بعض الطوائف إلى تكفير كل فرقة سوى الفرقة التي يعتزى إليها .

(١) (فيصل التفرقة) ، ص ٢٣ - ٢٥ .

فإذا أردت أن تعرف سبيل الحق فيه فاعلم قبل كل شئ أن هذه مسألة فقهية ، أعني الحكم بتكفير من قال قولاً وتعاطى فعلاً ، فإنها تارة تكون معنوية بآدنة سمعية ، وتارة تكون مظنونية بالاجتهاد . ولا مجال لدليل العقل فيها البتة ^(١) .

فإذا تقرر هذا الأصل ، فقد قررنا في أصول الفقه وفروعه أن كل حكم شرعى يدعى مدع فإما أن يعرفه بأصل من أصول الشرع من إجماع أو نقل أو قياس على أصل . وكذلك كون الشخص كافراً ، إما أن يدرك بأصل أو يقاس على ذلك الأصل .

والأصل المقطوع به أن كل من كذب محمداً ﷺ فهو كافر ، أى سخذ فى النار بعد الموت ~~وذلك هو الأصل~~ — إلى جملته الأحكام — إلا أن التكذيب على مراتب :

الرتبة الأولى : تكذيب اليهود والنصارى وأهل الملل كلهم من المجوس وعبدة الأوثان وغيرهم . فتكفيرهم منصوص عليه فى الكتاب ، ومجمع عليه بين الأمة ، وهو الأصل . وما عداه كالمحقق به .

الرتبة الثانية : تكذيب البراهمة المنكرين لأصل النبوات ، والدهرية المنكرين نصانع العالم . وهذا ملحق بالنصوص بطريق الأولى . لأن هؤلاء كذّبوه وكذبوا غيره من الأنبياء — أعنى البراهمة — فكانوا بالتكفير أولى من النصارى واليهود . والدهرية أولى بالتكفير من البراهمة ، لأنهم

(١) أبو حامد الغزالي (الاقتصاد فى الاعتقاد) ، ص ١٤١ ، طبعة مكتبة صبيح —

ضمن مجموعة — القاهرة . بدون تاريخ .

أضافوا إلى تكذيب الأنبياء إنكار المرسل ، ومن ضرورية إنكار النبوة .
ويأتحق بهذه الرتبة كل من قال قولاً لا يثبت النبوة في أصلها ، أو نبوة
نبينا محمد على الخصوص إلا بعد بطلان قوله .

الرتبة الثالثة : الذين يصدقون بالصانع والنبوة ، ويصدقون النبى
ولكن يعتقدون أموراً تخالف نصوص الشرع ، وتكن يقولون إن النبى
محق ، وما قصد بما ذكره إلا صلاح الخلق ، ولكن لم يقدر على انتصريح
بالحق لكلال أفهام الخلق عن دركه . وهؤلاء هم الفلاسفة ، وهؤلاء يجب
تكفيرهم في ثلاثة مسائل ، وهى :

إنكارهم لحصر الأجساد والتعذيب بالنار والتنعيم فى الجنة بالحوار
العين والماكول والمشروب والمثبوس ، والأخرى قولهم إن الله لا يعلم
الجزئيات وتفصيل الحوادث وإنما يعلم الكليات ، وإنما الجزئيات تعلمها
الملائكة السماوية .

والثالثة قولهم إن العالم قديم . وأن الله تعالى متقدم على العالم بالرتبة
مثل تقدم العلة على المعلوم ، وإلا فلم تر فى الوجود إلامساويين .

وهؤلاء إذا أوردوا عليهم آيات القرآن زعموا أن الذات العقولية
تفهم الأفهام عن دركها ، فمثل لهم ذلك بالذات الحسية . وهذا كفر
صريح ، والقول به يبطال لفائدة شرائع ودواب الاهتداء بنور القرآن
واستبعاد الرشيد عن قول الرسل ، فإنه إذا جاز عليهم الكذب لأجل المصالح
بطئت الثقة بأقوالهم . فما من قول يصدر عنهم إلا ويتصور أن يكون
كذبا ، وإنما قالوا ذلك لمصلحة .

(فإن قيل) : فلم قلتم ، مع ذلك . بأنهم كفرة ؟

قلنا : لأنه عرف قطعاً عن الشرع أن من كذب رسول الله فهو كافر ،
وهؤلاء مكذبون ، ثم معطلون للكذب بمعذير فاسدة ، وذلك لا يخرج الكلام
عن كونه كذباً .

الرابعة الرابعة : المعتزلة والمشبّهة والفرق كلها - سوى الغلاة -
وهم الذين يصدقون ، ولا يجوزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة ،
ولا يشتغلون بالتعليل لمصلحة الكذب ، بل بالتأويل ، ولكنهم مخطئون في
التأويل ، فهؤلاء أمرهم في محل الاجتهاد ، والذي ينبغي أن يحصل
المحصل إنّه ، الاحتراز من التكفير بما وجد إليه سبيلاً ، فإن استباحة
الدماء والأموال من المصنئين إلى أقلية المصريحين يقول لا إله إلا الله
محمد رسول الله خطأ ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من
الخطأ في سفك صبغة من دم مسلم ..

وهذه الفرق تنقسمون إلى سرفين وعادة وإلى مقتصنين بالأماني
إنيهم : ثم المجتهد الذي يرى تكفيرهم قد يكون ظلمه في بعض المسائل
وعلى بعض الفرق أظهر ، وتفصيل احده تلك المسائل يطول ، ثم يشير
الفتن والاحقاد ، فإن أكثر الخائضين في هذا إنما يحركهم التعصب
وشياح الهوى دون النظر للدين .

ودليل المنع من تكفيرهم أن الثابت عندنا بالنص تكفير المكذب
لرسول ، وهؤلاء ليسوا مكذبين أصلاً ، ولم يثبت لنا أن الخطأ في
التأويل موجب للتكفير ، فلاب من دليل عليه ، ويثبت أن العصمة مستفادة
من قول لا إله إلا الله قطعاً ، فلا يدفع ذلك إلا بقاطع ، وهذا القدر كاف

فى التنبيه على أن إسراف من بالغ فى التكفير ليس عن برهان ، فإن البرهان إما أصل أو قياس على أصل ، والأصل هو التكذيب الصريح . ومن ليس بكاذب فليس فى معنى المكذب أصلاً ، فيبقى تحت عموم العصمة بكلمة الشهادة .

الرئية الخامسة : من ترك التكذيب الصريح ولكن ينكر أصلاً من أصول الشرعيات المعلومه بالتواتر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين ، فإذا قرئ عليه القرآن والادعاء أن قال كنت أعلم صنو هذا من رسول الله ، فنعلم غلطاً ونحريف . وكفى يقول أنا معترف بوجوب الحج ، ولكن لا أدري أين مكة وأين الكعبة ولا أدري أن البلد الذى تستقبله الناس ويحجونه هل هو الذى حجه النبي عليه الصلاة والسلام ووصفها القرآن . فهذا أيضاً ينبغي أن يحكم بكفره لأنه مكذب ولكنه محترز عن التصريح ، وإلا فالمتواترات تستلزم فى تركها العوام والخواص .. إلا أن يكون هذا الشخص قريب عهد بالإسلام ، ولم يتواتر عنده بعد هذه الأمور فيمهل به إلى أن يتواتر عنده ، ولسنا نكفره لأنه أنكر معنوماً بالتواتر ، وأنه لو أنكر غزوة من غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم المتواترة ، أو أنكر وجود أبى بكر وخلافته لم يلزم تكفيره ، لأنه ليس تكذيباً فى أصل من أصول الدين مما يجب التصديق به ، بخلاف الحج والصلاة وأركان الإسلام ولسنا نكفره بمخالفة الإجماع .. لأن الشبهة

كثيرة في كون الإجماع حجة قاطعة ، وإنما الإجماع عبارة عن التطابق على رأي نظري (١) .

هكذا رأينا جمهور أهل السنة والجماعة — بشأن حجة الإسلام أبو حامد الغزالي — لا يكفرون أحداً من أهل القنلة شهيداً أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ..

* لا يكفرون الشيعة الإمامية بقولهم في الإمامة ، رغم ما في عقيدتهم هذه من حماقة وشذوذ .. ورغم تكفير جمهور الشيعة لمن لا يتفق معهم في عقيدتهم في الإمامة .

ولا يكفرون أحداً من المسؤولين الذين ، يلتزمون قوانين التأويل ..
* ولا يكفرون أحداً من الفرق المخالفة — مثل المعتزلة أو المشيعة أو غيرها — لأن معيار الإيمان هو التصديق بما جاء به رسول الله ﷺ .. ومعيار الكفر هو التكذيب لما جاء به الرسول — وخاصة في الأصول ..

ومن هنا كان زجرهم عن المسارعة إلى التكفير .. وتأكيدهم على أن هذه القضية فقهية شرعية لا تثبت إلا بأصل أو قياس على هذا الأصل ..
ولا تثبت بالرأي والعقل .. ومن ثم فإن الاحتراز من التكفير واجب ما وجد المرء إليه سبيلاً ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى النقبلة ، المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ ، والخطأ في

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٢ — ١٤٥ .

ترى ألف كافر في الحياة أهون من الشئ في سفك محبة من دم
سلم !

— كما يقول الغزالي — :

وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عنه :

أصل من أصول الأحكام في الإسلام : البعد عن التكفير .. ولما
اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قاتل
يحتل الكفر من مائة وجه ويحتل الإيمان من وجه واحد . حمل على
الإيمان . ولا يجوز حمله على الكفر .. فهل رأيت تسامحاً مع أقوال
الفلاسفة الحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من
الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتل الإيمان من وجه واحد من مائة
وجه ؟ (١) .

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبيد) ، ج ٣ ، ص ٣٠٢ ، طبعة القاهرة

سنة ١٩٩٢ م .

مستويات الخطاب .. ومستويات المخاطبين

يؤمن المنهج الإسلامي بوحدة الحقيقة .. وليس بتعددتها — كما هو الحال في المناهج الوضعية الغربية ، التي تقسم الحقيقة إلى : عقلية علمية لا دينية ، ودينية لا عقلانية .

ويؤمن المنهج الإسلامي بحق كل إنسان مكلف في السعي إلى طلب الحقيقة وتحصيلها .. " فالحكمة ضالة المؤمن أئبى وجدها فهو أحق الناس بها " .. وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسئمة .. أى أن الإسلام يتجاوز جعل العلم والحكمة والحقيقة مجرد " حق " من حقوق الإنسان ، إلى حيث يجعل ذلك " فريضة إلهية وتكليفاً شرعياً وواجباً ربانياً " لأنه لا يسوى بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ولأن خطاب الإسلام موجه — بالأساس — إلى الذين يتفكرون ويتدبرون ويعقلون .. ولأن الدين علم ، وبدون العلم والمعرفة يستحيل على الإنسان أن ينهض بالأمانة التي حملها ، أمانة العمران لهذا الكوكب الذي يعيش فيه .. والشكر لوابد النعم في هذا الوجود ..

لكن .. لما كانت مستويات الناس — الفطرية ، والكسبية ، متفاوتة ، تفاوتت — لذلك — إمكاناتهم وطاقاتهم وحظوظهم في تحصيل ما يحصلون

من الحقائق والمعارف والعلوم .. وليس في ذلك شبهة طبقية ولا كهانة ،
كتلك التي عرفتْها حضارات قديمة وديانات أخرى ، حجرت على عامة
الناس ميادين كثيرة من العلم الديني والمعارف الدنيوية .. وإنما هو
المنهج الإسلامي الذي يفتح أبواب ميادين المعارف والعلوم على
مصاريعها أمام الكافة ، ثم يطلب من كل إنسان أن يحمل من العلم قدر
الطاقة والاستعداد والجهد الذي يبذله في الطرب والتحصيل .

ولهذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامي تمايزت مستويات
" الخطاب الإسلامي " وفق تمايز المستويات العقلية للمخاطبين .. فمع
وجود المقادير الضرورية التي لا يستغنى عنها المكلف من المعارف
والعلوم .. الدينية والدينية — هناك مستويات وألوان من الحقائق
والمعارف والعلوم لا يدركها إلا العلماء .. وهناك مستويات أخرى
لا يدركها إلا الراسخون في العلم .. ووراء جميع ذلك هناك مستويات من
العلم لا يدرك العقل الإنساني كنه حقائقها وجوهر مكنوناتها .. بل
لا تستطيع اللغة أن تعبر عن هذا الجوهر والكنه والمكنون ، لأنها من علم
الله الكلي والمطلق والمحيط ، وليست من العلم النسبي والمعارف النسبية
المقدورة للإنسان .. ولهذا القسم من العلم الإلهي يضرب الله الأمثال التي
تقرب صورته إلى الإنسان .

ولهذا الحقيقة من حقائق هذا المنهج الإسلامي ، في تعدد مستويات
الخطاب الإسلامي ، وفق تعدد مستويات الإدراك والتفكير لدى المخاطبين ،

ميز القرآن الكريم بين " المحكم " الذى يدركه جمهور المخاطبين .. وبين " المتشابه " ، الذى يعرف تأويل بعضه الراسخون فى العلم .. ولا يدرك مآلات بعضه الآخر إلا الله — سبحانه وتعالى — .. ودعا الإسلام الكافّة إلى تجنب تأويل هذا القسم ، الذى تعلو حقائقه الكلية عن مدارك العقل النسبية ، كي لا تكون فتنة بين الناس .

ولقد جاء فى الحديث النبوى الشريف : " أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم — رواه الديلمى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — وأورده السيوطى فى [جامع الأحاديث] .

ولقد عقد الإمام البخارى — فى كتاب العلم — باباً " لمن خصّ بالعلم قوما دون قوم كراهة أن لا يفهموا " .. وأورد فيه عن على بن أبى طالب — رضى الله عنه — قوله : " حدثنا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ " .

وفى مقالات الإسلاميين لإمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعري [٢٦٠ — ٣٢٤ هـ — ٨٧٤ — ٩٣٦ م] — نجد أن " المباحث العالية فى دقيق الكلام " لا يدركها إلا الراسخون فى العلم من أصحاب المقالات ..

وانطلاقاً من هذه الرؤية ، كان اجتماع علماء الإسلام على ضرورة حجب مستويات من العلم عن الذين لم يحصلوا من الأدوات ما يجعلهم يطبقون فقه هذه المستويات ، وذلك حتى لا تتحول الحقائق — عند من لا طاقة لهم بفقهها — إلى سبيل من سبل البلبلة أو الضلال ، أو الشكوك التى لا يستطيعون التخلص من دواماتها إلى شاطئ اليقين والاطمئنان .

* ولقد كان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١] من أكثر العلماء الذين وضعوا الكتب والرسائل في تعديد قواعد هذا المنهاج - منهاج التمييز والتحديد لمستويات الخطاب ، وفق تمايز مستويات مخاطبين ..

ومن الكتب النفيسة التي خصصها الغزالي لهذا المنهج كتابه : [إلجام العوام عن علم الكلام] .. ذلك أن علم الكلام إنما نشأ - في الحضارة الإسلامية - على يد المعتزلة - للرد على خصوم الإسلام ، وللجدل مع المعاندين من أصحاب الفلسفات والديانات غير الإسلامية .. فهو بمثابة " ترسانة الحرب الخارجية " القائمة على الثغور .. فإذا تحولت أسلحته إلى " الصراعات الداخلية " وإذ استخدمت هذه الأسلحة غير المدربين على استخدامها ، وغير القادرين على حملها ، كانت فتنة كبرى بين الجمهور والعوام .

ولذلك ، قرر الغزالي - في هذا الكتاب - أن من بچار علم الكلام ومبادئه ومصطلحاته ما لا تجوز السباحة فيه لغير القادرين على فقه " دقيق الكلام " .. وهو يرد على الذين ينكرون تمايز مستويات الخطاب بتمايز مستويات مخاطبين ، بحجة عموم الخطاب ، وأن الله - سبحانه وتعالى - لا يخاطب الخلق بما لا يفهمون .. يرد الغزالي على أصحاب هذا القول .. ويحاورهم .. فيقول :

" .. وإن قلت :

— فأى فائدة في مخاطبة الخلق بما لا يفهمون ؟

وجوابك :

— إنه قصد بهذا الخطاب تفهيم من هو أهله ، وهم الأولياء والراسخون في العلم ، وقد فهموا ، وليس من شرط من خاطب العقلاء بكلام أن يخاطبهم بما يفهم الصبيان والعوام بالإضافة إلى العارفين كالصبيان بالإضافة إلى البالغين ، ولكن على الصبيان أن يسألوا البالغين عما يفهمونه ، وعلى البالغين أن يجيبوا الصبيان بأن هذا ليس من شأنكم ، ولستم من أهله ، فخوضوا في حديث غيره .

ويجب على كل من لا يقف على كنه هذه المعنى وحقيقتها ، ولم يعرف تأويلها والمعنى المراد به أن يقر بالعجز ، فإن التصديق واجب ، وهو عن دركه عاجز ، فإن ادعى المعرفة فقد كذب . . .

بل إن الراسخين في العلم والعارفين من الأولياء إن جاوزوا في المعرفة ' حدود العوام ' وجالتوا في ميدان المعرفة ، وقطعوا من يواديها أميالا كثيرة ، فما بقى لهم مما لم يبلغوه بين أيديهم أكثر ، بل لا نسبة لما طوى عنهم إلى ما كشف لهم ، لكثرة المطوى وفئة المكشوف بالإضافة إليه ، بالإضافة إلى المطوى المستور .

وإن مستند إيمان العوام في هذه الأسباب وأعلى الدرجات في حقه : أدلة القرآن وما يجري مجراه مما يحرك القلب إلى التصديق ، ولا ينبغي أن يجاوز بالعامي إلى ما وراء أدلة القرآن وما في معناه . بل لو اشتغل العامي بالمعاصي البدنية ربما كان أسلم له من أن يخوض في البحث عن

معرفة الله تعالى ، لأن ذلك غايته الفسق ، وهذا عاقبته الشرك ، وإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ^(١) .

كما كتب الغزالي — كذلك — في هذا الفن — كتابه : [المضمون به على غير أهله] .. وفيه يقرر أن من الحقائق ما لا يعلمها العقلاء — فضلا عن العوام — لأنها مما استأثر الله — سبحانه — بعلمه :

« ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أمورا ورد الشرع بها ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده » ^(٢) .

كما كتب الغزالي — أيضا في هذا الموضوع رسالته [الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية] أى [المضمون الصغير] .. وفيها تحدث عن مذهب السلف ، الذى هو : زجر العوام عن الخوض في علم الكلام .. وإباحته للراسخين في العلم ، مستخدما مثال السياحة في النهر للتمييز بين القادرين عليها وبين غير القادرين .. فقال :

« .. ولهذا زجر السلف عن البحث والتفتيش عن علم الكلام ، وإنما زجروا عنه لضعاف العوام . وأما المشتغلون بدرك الحقائق فلهم خوض غمرة الإشكال . ومنع الكلام للعوام يجرى مجرى منع الصبيان من شاطئ

(١) الغزالي [إجماع العوام عن علم الكلام] ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٩٧ ، ٢٦٣ . طبعة القاهرة — مكتبة الجندى ضمن مجموعة [القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي] بدور تاريخ .

(٢) الغزالي [المضمون به على غير أهله] ص ٣٤٥ — طبعة مكتبة الجندى — ضمن مجموعة [القصور العوالي] ..

نهر دجلة خوفاً من الغرق ، ورخصة الأقوياء فيه تضاهي رخصة الملهر
في صتعة السباحة (١) .

هكذا أفاض حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في تحديد مستويات
الخطاب وفق تمايز مستويات المخاطبين .

* * *

* فلما جاء الفيلسوف الفقيه أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠-٥٩٥هـ —
١١٢٦-١١٩٨م] سار على طريق الغزالي .. فحدث عن وحدة
الحقيقة . وعن تعدد طرق التصديق بهذه الحقيقة الواحدة وذلك تبعاً لتعدد
مستويات المخاطبين المكلفين بهذا التصديق .

فهو يؤكد على وحدة الحقيقة في الذات الإلهية .. وفي الشريعة
الإلهية .. وفي المخلوقات مع تعدد طرق التصديق بهذه الحقيقة الواحدة ،
تبعاً لتعدد جيلات الناس وطبائع الجمهور : عامة وحكام .. ومتوسطين
بينهما .. فيقول :

« إنا نعتقد ، معشر المسلمين ، أن شريعتنا هذه الإلهية حق ، وأنها
التي نهت على هذه السعادة ودعت إليها ، التي هي المعرفة بالله — عز
وجل — وبمخلوقاته ، فإن ذلك متقرر عند كل مسلم من الطريق الذي
اقتضته جبلته وطبيعته من التصديق ، وذلك أن طبائع الناس متفاوتة في
التصديق ، فبعضهم من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق بالأنوار

(١) الغزالي [المصنوع الصغير] ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ — طبعة مكتبة الجندي — ضمن
مجموعة [القصور الموالى] .

الجدلية تصديق صاحب البرهان بالبرهان ، إذ ليس في طباعه أكثر — من ذلك . ومنهم من يصدق بالأقوال الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقوال البرهانية . وشريعتنا قد دعت الناس من هذه الطرق الثلاث . . . وذلك خصّ عليه الصلاة والسلام بالبحث إلى الأحمر والأسود . أعنى لتضمن شريعته طرق الدعاء إلى الله تعالى ، وذلك صريح في قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) .

وهذا التمايز بين الناس — حكماء .. وجمهورا .. وسؤوسطين بينهما — ليس في تمايز الحقائق والمعاني التي يدركها التي يدركها فريق عن الفريق الآخر .. وإنما هو في " القدر والتصيب " الذي يستطيع إدراكه كل فريق من ذات الحقيقة الواحدة .. وبعبارة ابن رشد :

" فالطريقة الشرعية التي دعا الشرع منها جميع الناس على اختلاف فطرتهم ، إلى الإقرار بوجود الباري سبحانه .. والتي تبه الكتاب العزيز عليها ، واعتمدتها انصباة .. تنحصر في جنسين . دليل العناية ، ودليل الاختراع .. ولقد تبين أن هاتين الطريقتين هما بأعيانهما طريقة الخواص — وأعنى الخواص العلماء — وطريقة الجمهور . وإنما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل ، أعنى أن الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس ، وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس

(١) النحل : ١٢٥ .

ما يدرك بالبرهان ، أعنى من العناية والاختراع .. والعلماء ليس يفضلون الجمهور فى هذين الاستدلالتين من قبل الكثرة فقط ، بل ومن قبل التعمق فى معرفة الشيء الواحد نفسه . فإن مثال الجمهور فى النظر إلى الموجودات مثالهم فى النظر إلى المصنوعات التى ليس عندهم علم بصنعها ، فإتهم إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط وأن لها صانعا موجودا . ومثال العلماء فى ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التى عندهم علم ببعض صنعها وبوجه الحكمة فيها . أما مثال الدهريّة فى هذا ، الذين جحدوا الصانع سبحانه ، فمثال من أحس مصنوعات فلم يعترف أنها مصنوعات ، بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق والأمر الذى يحدث من ذاته .. (١) .

" وإذا كان الغزالي قد دعا إلى منع غير الراسخين فى العلم من التأويل .. فإن ابن رشد قد دعا إلى منع التأويل فى مبادئ الشريعة وفى المعجزات — أى فيما لا تدركه العقول الإنسانية — حتى على الحكماء من الفلاسفة .. فقال :

" فإن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادئ الشرائع ، وفاعل ذلك عندهم يحتاج إلى الأدب الشديد ، وذلك أنه لما كانت كل صناعة لها مبادئ ، وواجب على الناظر فى تلك الصناعة أن يسلم مبادئها ، ولا يتعرض لها بنقش ولا إبطال ، كانت الصناعة العملية

(١) ابن رشد [مناهج الأدلة فى عقائد الملة] ص ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ . دراسة وتحقيق :

د . محمود قاسم . طبعة القاهرة ١٩٥٥ م .

الشرعية أخرى بذلك ، لأن المسمى على الفضائل الشرعية هو ضرورى عندهم ، ليس فى وجود الإنسان بما هو إنسان ، بل وبما هو إنسان عالم ، ولذلك يجب على كل إنسان أن يسلم مبادئ الشريعة وأن يقلد فيها ، فإن جردها والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان ، ولذلك يجب قتل الزنادقة . فالذى يجب أن يقال فيها : إن مبادئها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ، فلا بد أن يعترف بها مع جهل أسبابها ، ولذلك لا تجد أحداً من القدماء تكلم فى المعجزات ، مع انتشارها وظهورها فى العالم ، لأنها مبادئ تثبت الشرائع ، والشرائع مبادئ الفضائل ، ولا فيما يقال بعد الموت .

فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية كان فاضلاً بإطلاق ، فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم ، فعرض له التأويل فى مبدأ من مبادئها ، فيجب عليه أن لا يصرح بذلك التأويل ، وأن يقول فيه كما قال — تعالى — : ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ﴾ (١) .

إنه لا يجوز التأويل فى مبادئ الشريعة — [لأن التأويل هو عمل العقل فى الانتقال بدلالة اللفظ من الحقيقة إلى المجاز ، وفق قوانينه] — وهذه المبادئ الإلهية تفوق العقول الإنسانية .. وواجب كل إنسان أن يسلم بها ويقلد فيها .. هذه هى حدود الشرائع وحدود العلماء (٢) .

(١) آل عمران : ٧٠ .

(٢) ابن رشد [تهافت التهافت] ص ١٢٤ ، ١٢٥ . طبعة القاهرة ١٩٠٣ م .

هكذا حدد ابن رشد حدود الشرائع ، ومبادئها التي لا يجوز فيها
الجدل ولا التأويل .. كما حدد حدود الجمهور وطريقتهم في التصديق ..
وحود أهل الجدل من المتكلمين .. وكذلك حدود الحكماء والعلماء وسبيلهم
البرهاني إلى التصديق .

* وكما نبه ابن رشد على مذهب السلف في عدم التأويل ، نبه على
أن ظهور التأويل في الفكر الإسلامي قد ارتبط بترجع التقوى في
المجتمعات الإسلامية .. فقال :

" إن الصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال
هذه الأقاويل التي ثبتت في الكتاب العزيز * دون تأويلات فيها ، ومن كان
منهم وقف على تأويل لم ير أن يصرح به .

وأما من أتى بعدهم ، فإنهم لما استعملوا التأويل قلّ تقواهم ، وكثر
اختلافهم ، وارتفعت محبتهم وتفرقوا فرقاً ، فيجب على من أراد أن يرفع
هذه البدعة عن الشريعة ، أن يعمد إلى الكتاب العزيز ، فيلتقط منه
الاستدلالات الموجودة في شيء شيء ، مما كلفنا اعتقاده ، ويجتهد في
نظره إلى ظاهرها ما أمكنه من غير أن يتأول من ذلك شيئاً ، إلا إذا كان
التأويل ظاهراً بنفسه أعني ظهوراً مشتركاً للجميع (١) .

* ومع كل هذه الضوابط التي أحاط بها ابن رشد قضية التأويل ..
وتقديم أساليب القرآن في الاستدلال وفي التصديق على غيرها من

(١) ابن رشد [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٦٥ . دراسة

وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة - دار المعارف - ١٩٩٩م .

الأساليب .. رأينا يؤكد على أن هذا التأويل الذي هو حق للخاصة من
الراسخين في العلم ، لا يصريح به للعامة ، ولا يثبت في الكتب الجمهورية
— حتى ولو كان تأويلاً صحيحاً ، مستجمعاً لشروط التأويل وضوابطه ..
وبعبارة :

١ .. فهذا التأويل ليس ينبغي أن يصرح به لأهل الجدل . فضلاً
عن الجمهور ، ومتى صرح بشيء من هذه التأويلات لمن هو من غير
أهلها .. أفضى ذلك بالمصرح له والمصرح إلى الكفر .. فليس يجب أن
تثبت التأويلات الصحيحة في الكتب الجمهورية ، فضلاً عن الفاسدة ..
وأما المصرح بهذه التأويلات لغير أهلها فكافر .. (١) .

* * *

هذا هو المنهاج الإسلامي في :

* وحدة الحقيقة .

* وتعدد طرق التصديق بالحقيقة الواحدة ، تبعاً لتمييز مستويات

المخاطبين والمكلفين بهذا التصديق .. مستويات :

١— أهل البرهان من الحكماء والعلماء الراسخين في العلم .

٢— وأهل : الجدل — من المتكلمين .

٣— وأهل الخطابة والمواعظ .. من الجمهور .

(١) المصدر السابق . ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ . وانظر كذلك [مناهج الأدلة]

وإذا كان هذا المنهاج الإسلامى بديهياً ، لا تختلف فيه ولا حولها
 القطر السليمة والعقول المستقيمة .. فلقد جاء القرآن الكريم مؤكداً له
 ومؤكداً عليه .. فأينما فيه التمييز بين العلماء وبين الراسخين فى العلم ..
 ووجدناه يدعو غير العلماء إلى الرجوع إلى أهل العلم — أهل الذكر — :
 « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (١) .

كما وجدنا واقع المجتمع الإسلامى فى عصر النبوة تجسيدا لهذا
 المنهاج ..

« فالخطاب الإسلامى عام للكافة والعالمين : « إن هو إلا ذكر
 للعالمين » (٢) . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٣) . « تبارك الذى
 نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » (٤) .

« لكن المخاطبين بهذه الرسالة العامة والعالمية ليسوا سواء ، فى
 مستويات الثقيل أو فى طاقات الفقه والاستيعاب .. ومن ثم فقد تمايزت
 مستويات الخطاب الإسلامى وأساليبه لتتناسب مستويات المخاطبين ، وكانت
 الأساليب القرآنية الفطرية مشتركة بين الجميع ووافية باحتياجات الجميع ..
 » ولذلك ، رأينا مجتمع النبوة تجسيدا لهذا المنهاج .. فالذين آمنوا
 بالإسلام وعاصروا رسول الله ﷺ وصحبوه ، قد بلغ عددهم يوم وفاته
 ١٢٤,٠٠٠ لكن الذين كانت لهم قدم فى العلم والجهاد والصحية — من بين

(١) النحل : ٤٣ .

(٢) يوسف : ١٠٤ .

(٣) الأنبياء : ١٠٧ .

(٤) الفرقان : ١ .

هذا الجمهور — قد أحصاهم العلماء في كتب أعلام الصحابة ، فوجدناهم — كما في [أسد الغابة في معرفة الصحابة] لابن الأثير [٥٥٥ — ٦٣٠ هـ — ١١٦٠ — ١٢٣٣ م] — أقل من ثمانية آلاف — ٧.٧٠٣ مع تفاوت في الفقه وفي الرسوخ العلمي بين هذه النخبة و الصفوة التي تخرجت في مدرسة النبوة ، على عهد رسول الله ﷺ الأمر الذي أكد — دائما وأبدا — تمايز مستويات الخطاب الإسلامي بتمايز مستويات مخاطبين بهذا الخطاب .

ثورة الإعلام المعاصر .. وإشاعة فتنة التكفير بين الجماهير

وإذا كانت ثورة الاتصالات المعاصرة قد مثلت نعمة كبرى من نعم الله في العلم الحديث ، عندما يسرت على الناس سبل المعرفة ، وأتاحت ثمرات العقول الإنسانية لجماهير الأمم والشعوب من مختلف الحضارات والقارات والطبقات .. فإن لهذه الثورة سلبيات عديدة ، منها — فيما يتعلق بموضوع بحثنا — نقل كثير من المسائل الجدلية والخلافية من مصادرها المتخصصة ، والمقصورة على العلماء المتخصصين إلى الكتب الجماهيرية والمواقع المتعددة على " الشبكة العالمية للمعلومات " وهي كتب ومواقع " غدت — في أحيان كثيرة — تغرى وتستدرج جمهورا كبيرا من غير المتخصصين ، بل وغير المؤهلين للاطلاع على مسائل وقضايا ومجاذلات تزعزع ما لدى الجمهور من اليقين ، دون أن يكون هذا الجمهور قادرا على تحصيل يقين بديل لذلك الذي زعزعه هذه الجدليات وما فيها من شبهات كما تنشر هذه الكتب الجماهيرية ومواقع " الإنترنت " — وبعض الفضائيات — خلافات الفرق وصراعات المذاهب وجدليات التيارات الفكرية بين العامة ، فتشعل نيران التعصب والتمزق والتشردم بين جماهير أمة الإسلام .

* لقد نقلت وسائل الإعلام والاتصال هذه كثيرًا من مسائل علم الكلام – الفلسفية – وأدلتها الجدلية – وهي أدلة لا تحقق طمأنينة إيسانية – لأنها ليست الأدلة القطرية ، نقلتها إلى عامة الجمهور وجمهور العامة .

* وبعد أن كانت " الجدليات الكلامية " سلاحًا في مواجهة خصوم الإسلام ، وفي التدافع بين المؤمنين والمعادين .. نقلت كثير من المنابر الإعلامية و " مواقع الإنترنت " – التي أنشأتها مذاهب وقيارات إسلامية – نقلت هذه " الجدليات الكلامية " إلى العامة والجمهور .. حتى لقد رأينا أخطر القضايا – وهي قضية تكفير من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله – يشيع الحديث عنها وتجدل حولها والتكلاف بها بين من لا يحسن اتقنه لفروع العبادات والمعاملات ، فضلًا عن الفقه لدقيق الكلام في أصول الاعتقادات !! .. بل لقد عدت " شهوة اشغب " فنا من الفنون التي يتبارى في عرض فصوله المتفرغون له .. ويسعى لإدمان مشاهدته ، وتفرغ الغرائز الصراعية في متابعته جمهور عريض من الناس !! ..

* فبعد أن كان المنهاج الإسلامي يدعو إلى [إلجام العوام عن علم الكلام] .. وبعد أن كنا نقرأ في مصادر هذا العلم – على لسان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، وغيره – :

" التحذير من تكفير الفرق ، وتطويل اللسان في أهل الإسلام . وإن اختلفت طرقهم ، ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله . صادقين بها ، غير منافضين لها.. لأن الكفر حكم شرعي لا يدرك إلا بمدرك شرعي ، من نص أو قياس على منصوص .. ولا يلزم كفر المؤولين ما داموا يلازمون فانون التأويل .. وأصول الإيمان ثلاثة ، هي :

الإيمان بالله ، وبرسوله ، وباليوم الآخر ، وما عداه فروع .. ولا تكفير
 فى الفروع أصلاً ، إلا فى مسألة واحدة وهى أن ينكر أصلاً دينياً علم من
 الرسول ﷺ بالتواتر .. فالتكفير فيه خطر ، والسكوت لا خطر فيه ..
 والخطأ فى ترل ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك مخجمة —
 [مصّة] — من دم مسلم .. والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على من
 يغلب عليهم الجهل .. وأكثر الخانضين فى هذا التكفير إنما يحركهم
 التعصب واتباع الهوى دون النظر للدين .. والعصمة للدم مستفادة من
 قول لا إله إلا الله قطعاً ، فلا يُدفع ذلك إلا بدليل قاطع .. (١) .

بعد أن كنا نقرأ هذا الكلام النفيس لحجة الإسلام الغزالي .. ونقرأ —
 كذلك — للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ — ١٨٤٩
 — ١٩٠٥ م] قوله :

" أصل من أصول الأحكام فى الإسلام : البعد عن التكفير .. ولقد
 اشتهر بين المسلمين وعُرف من قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قائل
 يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حُمِلَ على
 الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر " (٢) .

بعد أن كنا نقرأ ذلك .. ونقف عند حدوده .. أصبح التكفير مادة من
 مواد الإعلام الجمهورى التى تتبّع هذه " الفاحشة الفكرية " بين ملايين

(١) الغزالي [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٤٣ ، ١٤٤ . طبعة القاهرة — مكتبة صبيح
 — بدون تاريخ .

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٣٠٢ . دراسة وتحقيق : د. محمد
 عمارة . طبعة القاهرة — دار الشروق ١٩٩٣ م .

العوام .. حتى لقد تحولت بعض المنابر الإعلامية والمواقع على الشبكة العالمية للمعلومات إلى آليات لإشاعة الريب والشكوك وزعزعة اليقين والطمأنينة لدى كثير من الناس .. ومن ثم وسيلة لإشاعة المزيد من التمزق والافتراق بين صفوف الأمة ، وجعل بأسها بينها شديدا ، الأمر الذي يوهن من بأسها في مواجهة الأعداء .. وذلك على العكس من الصورة التي كانت لهذه الأمة في صدر الإسلام : « محمد رسول الله والذين معه أشدء على الكفار رحماء بينهم » (١) .

.. « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » (٢) .

* وإذا كان الاختلاف سنة من سنن الله — فى كل عوالم الخلق .. ومبادئ الفكر — فإن اتفاق الأمة واجتماعها على الجوامع الخمسة المكونة للأرض المشتركة بين شعوبها وأجناسها وقومياتها وأوطانها ومذاهبها — وهى جوامع وحدة :

- ١- العقيدة ..
- ٢- والتشريعة ..
- ٣- والحضارة ..
- ٤- والأمة ..
- ٥- ودار الإسلام ..

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) الأفعال : ٦٣ .

هو الشرط لجعل الاختلاف - في الفروع ، كالفقه والسياسة مثلا - ظاهرة صحية ، تفتح أبواب السعة والرحمة والتيسير لجمهور المسلمين ..
أما الخلاف في الأصول - وخاصة في أصول الاعتقاد - فإنه هو الذى يفقد الأمة أساس وحدتها ، ويجعل تفرقها شيعا فى أصول الدين والاعتقاد ..

وإذا نحن شئنا أن نضرب أمثلة على فاحشة الفكر التكفيرى ، الذى تقذف به تيارات فكرية .. ومذاهب كلامية .. وطرق صوفية إلى صفحات منابرها الإعلامية ومواقعها على الشبكة العالمية للمعلومات .. وتشيعه بين جماهير لا علاقة لأغليبيتها الساحقة بموضوعات العقائد ومباحثها ..
فإننا واجدون الكثير .. والتحذير .. والشر المستطير ! ..
وعلى سبيل المثال :

التكفير الصوفى للوهابية

" فالطريقة العزمية " — وهى إحدى الطرق الصوفية الأكثر استقراراً .. والأبعد عن الخرافات .. والأقرب إلى التجديد .. والتى أسسها الإمام المجدد الشيخ محمد ماضى أبو العزايم [١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م] — .. هذه " الطريقة " قد احترفت — فى الكثير من منابر إعلامها وثقافتها — مع الأسف الشديد — قذف السلفيين — وخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ هـ — ٧٢٨ هـ — ١٢٦٣ — ١٣٢٨ م] والشيخ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ هـ — ١٢٠٦ هـ — ١٧٠٣ — ١٧٩٢ م] — والوهابية — بأشنع الاتهامات .. بما فى ذلك التكفير والإخراج من ملة الإسلام ! ..

ففى زعمهم — مثلاً — أن عقائد الوهابية :

- * " عقائد غنوصية وهندوسية " *
- * " وهى مذهب إرهابى .. وتيار إلحادى خطير " *
- * " وهذا الوباء الوهابى لابد من اجتثاث تجربة الخبيثة " *
- * " وهذه الطائفة المقلدة لمحمد بن عبد الوهاب مجسمة مكفرة " *
- * " وهم مبتدعة خراصون .. " (١) .

(١) انظر هذه الأحكام — وأمثالها — فى كتاب [خطر تقسيم التوحيد على عقائد المسلمين] ص ٣٦، ١٦، ٦١، ٦٥ طبعة القاهرة ١٤٢٦ هـ — ٢٠٠٥ م .. وهو كتاب صدر ضمن سلسلة كتب شهيرة — صدر منها الآن أكثر من عشرين كتاباً — وجميعها موضوعة على شبكة الإنترنت .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية — والذي يعدّه علماء مدرسة الإحياء والتجديد
فى عصرنا الحديث من أبرز مجددى الإسلام — فإنه — بنظر " الطريقة
العزمية " — وعلى صفحات إعلامها :

* " المقتدى بأسلافه كلاب النار الحروريين — [الخوارج] — .. والذين
كفروا كثيرا من الصحابة .. وذلك عند ما حمل الآيات الواردة فى الكفار
على المؤمنين " .

* " بضاعته — من السب والقذف والتكفير — هى بضاعة سفلة الناس " .
* " وهو جاهل بأصول الدين جهلا مركبا .. وقد حكم على نفسه بالشرك
وعبادة غير الله وهو لا يشعر ، فصنق عليه المثل العربى : (رميتى
بدائها وانسلت) .. " .

* " وهو مكذب لنصوص كتاب الله تعالى وصريح سنة نبيه ﷺ .. ومركب
بذلك جرما عظيما .. وصاحب حكم فاجر .. وملبس وكذاب وجبان ..
وجاهل باللغة العربية وبأصول الدين .. " .

* " وهو الذى استبدل عقيدة التثليث بعقيدة التوحيد عندما اخترع (توحيد
الألوهية) فشاق به رسول الله ، واتبع فيه غير سبيل المؤمنين ، زيادة
على افتراءه على الله فى كتابه العزيز .. لقد حاول ابن تيمية جاهدا أن
يدخل عقيدة التثليث فى عقيدة المسلمين ، فلما عجز عن ذلك اكتفى بتقسيم
التوحيد إلى قسمين هما توحيد الألوهية (الأب) وتوحيد الربوبية (الابن) ..
ولقد اختار ابن تيمية فى كيفية إدخال التثليث فى عقيدة المسلمين فلم يمكن
إلا من إدخال (الأب والابن) .. وجاء محمد بن عبد الوهاب — فى القرن
الثانى عشر الهجرى .. بإيعاز من ابن تيمية — بما عجز عنه ابن تيمية ،

ورسّخ عقيدة التثليث، بإضافة توحيد الأسماء والصفات (الروح القدس) ..
 ١١٠١ أن نورخ لدخول التثليث في عقيدة بعض المسلمين ، فلن
 ١١٠٢ قبل القرن الثاني عشر الهجري ، الذي ظهر فيه
 ابن عبد الوهاب ..

* والمقصود من إدخال عقيدة التثليث في عقيدة المسلمين هو : مساواة
 المسلمين الموحدين بغيرهم من الأمم الوثنية والنصرانية ، مع التأكيد على
 أن الأمة الإسلامية مشرّكة ما عدا ابن عبد الوهاب وأتباعه دعاة
 التثليث .. (١) .. ولذلك ، فعلى الأمة أن تنتبه إلى هذا الوباء الرهيب ..
 الذي هو السبب فيما وصلت إليه الأمة من هوان .. وثجّت هذه الشجرة
 الخبيثة من فوق الأرض حتى لا يبقى لها قرار .. (٢) .

" لقد سن ابن تيمية للوهابية - وهو جاهل بالدليل وبأصول الفقه
 جهلاً مركباً ، كما هو جاهل باللغة وأصول الدين - سن للوهابية انتهاك
 حرمة النبي ﷺ .. ولذلك استحق أن يوصف بالخبيث .. المكابر .. ناقض
 العقل .. انذى في قلبه مرض الزيف المتبع ما تشابه من الكتاب والسنة

(١) الله مع السابق . ص ٦٦، ١٤٤، ٦٧، ٨٠، ٧٧، ٨١، ٨٤، ١٠٠، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩
 ونظراً .. كذلك - كتاب إ العقائد الوثنية والشرايع السماوية - في ذات المسئلة - ص ١١ .
 ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٢٩ طبعة القاهرة ٢٠٠٥ م .

(٢) انظر : في ذات السلسلة من الكتب - كتاب [ليسوا من أهل المدينة] ص ١٧ طبعة
 القاهرة سنة ٢٠٠٥ م .

ابتغاء الفتنة .. والمكذب لرب العالمين .. والخارج من الدين .. والمذدري بأصفيناه المنخبين وخلفائهم الراشدين وأتباعهم الموقنين!!^(١)، تلك نماذج — مجرد نماذج — من "الفحش الفكري" الذي قدمته — وقدمه — سلسلة من الكتب الجمهورية ، التي تصدر شهريا .. والتي صدر منها — عند كتابة هذه الدراسة — أكثر من عشرين كتابا !! والتي توضع على موقع " الطريقة العزمية " على الشبكة العالمية للمعلومات !! .. نتقدم " الفتنة الفكرية " لعامة المسلمين .. ولتقدم لأعداء الإسلام مادة غزيرة وخطيرة في حربهم على الوهابية التي وضعها الأمريكيان ويضعونها — بعد قارة " سبتمبر ٢٠٠١ م — في مستوى الشيوعية .. ويسمونها الفاشية الإسلامية !! ويشنون عليها أشرس الحملات والتهجمات !! .. لقد طلب مجمع البحوث الإسلامية " بالأزهر الشريف — منع هذه الكتب من التداول ، درءاً للفتنة بين المسلمين .. لكن الشبكة العالمية للمعلومات قد أتاحت — ونتيح — الاطلاع عليها لجمهور أوسع وأعرض من جمهور القراء للكتاب ! ..

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧ ، ١٢٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ .

التكفير الوهابى للشيعه .. والصوفية .. والأشعرية

ولم تكن السلفية الوهابية — التى تعرضت وتعرض للتكفير من قبل بعض الصوفية .. ومن قبل الشيعة — .. لم تكن أقل حظا من خصومها فى تبادل تهمة التكفير .. والنقاذف بها .. سواء كان ذلك فى كتبها الجمهورية أو على مواقعها على الشبكة العالمية للمعلومات .. ففى كل منابر الإعلام هذه نجد شيوع هذه " الفاحشة الفكرية " — تهمة التكفير ..

* فالصوفية — ينظر هذه السلفية الوهابية — هم : " مشركو العصور المتأخرة .. وهم أشد كفرا من كفار قريش .. ذلك أن كفار قريش كانوا إذا ضاقت بهم الحيل ، وعلّموا عجز آلهتهم عن تحقيق مرادهم ، فزعموا إلى الله تعالى ، أما هؤلاء الصوفية — كفار الأزمنة المتأخرة — فشرّكهم بالله يزداد فى المصائب والمحن ، فيفزعون إلى آلهتهم : إلى القبور والأولياء ، وينادونها بالغوث والمدد والأخذ باليد .. فهم أشد كفرا من أبى جهل وأبى لهب .. " !!

* " وأتباع هذه الطرق الصوفية : ملاحدة .. وزنادقة .. وقيوريون .. ومنحرفون .. وأمرهم واضح فى الضلال والبعد عن الصراط السوى " !!

* " والفقه والتصوف لا يجتمعان .. ومن كان فقيها صالح الحال ، ثم تصوف ، فإنه ينقلب إلى الأسوأ .. وذلك لأن التصوف هو الأخطبوط والسرطان الفتاك .. والبلاء الماحق .. الذى تشيع فيه التعاليم الوثنية ، وعلى رأسها عقيدة الاتحاد والحلول ووحدة الوجود " .

* " والصوفية : ردة جاهلية .. ونتاج وشى صريح جاء من الهند أو من فارس .. وأصحاب هذه الردة الجاهلية إنما يعبدون الأضرحة والأولياء " .

* هكذا .. وبهذه الأحكام التكفيرية - ومثلها كثير - طفحت صفحات المواقع السلفية الوهابية على الشبكة العالمية للمعلومات - حول التصوف والمتصوفين .. ! .

كذلك تكفر هذه السلفية الوهابية كل مذاهب الشيعة وفرقها :
" فمذهبهم هو مذهب الضلال .. وأعمالهم شركية ، كالأستغانة بعلى والحسين - رضى الله عنهما - "

* كما تجتهد هذه السلفية الوهابية فى استخراج " الفواحش الفكرية الشيعية " ، التى تحكم بالكفر والردة واللعن على صحابة رسول الله ﷺ وعلى جمهور أهل السنة .. استخراج هذه " الفواحش الفكرية " من بطون الكتب التراثية للشيعة ، لتعيد نشرها وإشاعتها بين العامة والجمهور !! ..

بل ولا تنسى هذه السلفية الوهابية أن تعمم " فواحشها الفكرية : على
الأشعرية — الذين يمثلون ٩٩% من جمهور أهل السنة والجماعة " —
وذلك عندما تحكم على عقيدتهم .
" بالفساد .. والتبذير .. والتفسيق " وأحيانا " بالتكفير .. أو ما يشبهه
التكفير " !! ..
وتنتشر ذلك " الفحش الفكرى " على صفحات مواقعها بالشبكة العالمية
للمعلومات " .

• • •

وهكذا تحولت الكتب الجمهورية ، ومواقع الإنترنت — عند هذه
السلفية الوهابية — إلى ساحة يتقاذفون فيها مع خصومهم هذه " الفواحش
الفكرية " ، التي تمزق وحدة الأمة الإسلامية .. وتوهن عزيمتها
ومنعتها في مواجهة أعدائها — الذين تجاوزوا خلافتهم التاريخية ..
وتناقضاتهم الدينية .. وتحالفوا جميعا لاجتياح عالم الإسلام وأمة الإسلام
ودين الإسلام !! ..

النزعة التكفيرية عند الشيعة

وإذا كانت الشيعة — بفرقها المختلفة : المعتدلون منهم — كالزيدية — والمتوسطون منهم — كالإثنى عشرية — .. والغلاة منهم — كالإسماعيلية والنصيرية .. والدروز — إنما يمثلون أقل من ١٠% من تعداد المسلمين .. بينما يمثل أهل السنة والجماعة ٩٠% من تعداد الأمة .. فإن وقوع الشيعة في مستنقع التكفير لأهل السنة قد شمل جمهورهم — باستثناء الزيدية — .. بينما لم يقع في مستنقع التكفير للشيعة — من أهل السنة — سوى قطاع من السلفيين ، لا يتجاوز عددهم الملايين التي تعد على أصابع اليدين .

بل إن تراث الشيعة ، في المصادر المعتمدة ، التي تدرس حتى اليوم في الحوزات العلمية ، والتي تكون العقل الفقهي للمراجع الشيعية الذين يقودون جماهير المقلدين .. إنما يعم — هذا التراث — " فاحشة التكفير " لتشمل جمهور صحابة رسول الله ﷺ وأزواجه .. أي أنهم يعممون هذه " الفاحشة " على جمهور الأمة ، بأجيالها المتتابعة ، منذ صدر الإسلام وحتى هذه اللحظات !!

" لقد طفحت " الأحاديث " التي نسبوها إلى أئمتهم ، وامتلأت مصادرهم في العقائد .. وأصول الدين .. والتفسير للقرآن الكريم .. وكتب

الرجال .. والتاريخ .. بالروايات التي تعمم فاحشة التكفير والارتداد واللعن لجمهور الصحابة — رضوان الله عليهم — وجمهور أمة الإسلام .
ووضعت هذه " الفواحش الفكرية " على العديد من المواقع على الشبكة العالمية للمعلومات .. سواء من قبل متعصبى الشيعة ، أو من قبل خصومهم السلفيين !!

ومن هذه " الفواحش الفكرية التكفيرية " — على سبيل المثال — :
* الحكم بالكفر والردة على أبى بكر الصديق .. وعمر الفاروق ..
وعثمان ذى النورين — رضى الله عنهم — .. فلقد جاء فى (الأصول من الكافي) للكلىنى (٣٢٩هـ / ٩٤١م) ^(١) :

" عن أبى عبد الله — جعفر الصادق — أن الآية ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا ﴾ ^(٢) . قد نزلت فى أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وكذلك آية : ﴿ إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم ﴾ ^(٣) . وأنهم (آمنوا بالنبي فى أول الأمر ، وكفروا حين عرضت عليهم ولاية على بن أبى طالب .. وأنهم ارتدوا عن الإيمان فى ترك ولاية على) !! ^(٤) .

(١) هذا الكتاب — عند الشيعة الإثنى عشرية — بمثابة (صحيح البخارى) عند أهل السنة .. والكلىنى هو أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكلىنى الرزازى — المتوفى سنة ٣٢٩هـ .

(٢) آل عمران : ٩٠ .

(٣) محمد : ٢٥ .

(٤) (الكافي) ج ١ ، ص ٤٢٠ . طبعة دار الكتب الإسلامية ، بيروت .

* كما ينسب الكليني - في (الروضة من الكافي) - إلى أبي عبد الله - جعفر الصادق - في تفسير الآية : « ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » ^(١) . أنهما أبو بكر وعمر !! ^(٢) .

* أما المجلسي - محمد باقر - صاحب (مرآة العقول) - فإنه يقول في شرحه للكافي ، ورواية الكليني هذه - ج ٢٦ ، ص ٤٨٨ :
" إن الجن المذكور في الآية هو عمر بن الخطاب ، سمى بذلك لأنه كان شيطاناً ، إما لأنه كان شرك شيطان لكونه ولد زنى ، أو لأنه في المكر والخديعة كالشيطان " !!

* وينسب الكليني إلى أبي عبد الله - جعفر الصادق - : أن هؤلاء الخلفاء الثلاثة - أبو بكر وعمر وعثمان . (لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب عظيم) !! ^(٣) .

* ويقول المجلسي في (العقائد) ص ٥٨ :
" إن مما غدا من ضروريات دين الشيعة الإمامية : البراءة من أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية " ، كما يصفهم - في كتابه (حق اليقين) ص ٥١٩ - بأنهم " الأصنام الأربعة " !! .. وأنهم وأتباعهم وأشياعهم " شر خلق الله على وجه الأرض " !!

(١) فصلت : ٢٩ .

(٢) الكليني (الروضة من الكافي) ج ٨ ، ص ٣٣٤ .

(٣) (الكافي) ج ١ ، ص ٣٧٣ .

كما يروى - في كتابه (بحار الأنوار) ج ٦٩ ، ص ١٣٧ - عن
مولي لعلي بن الحسين ، قوله في أبي بكر وعمر : أنهما " كافرين ، كافر
من أحبهما " !! ..

* أما الكركي - في كتابه (نفحات اللاهوت في لعن الجيت
والطاغوت) ص ١٤٠ - فيقول عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : " إن من لم يجد
في قلبه عداوة لعثمان ، ولم يستحل عرضه ، ولم يعتقد كفره ، فهو عدو لله
ورسوله ، كافر بما أنزل الله " !!

* بل لقد استحب الشيعة الإمامية - وبعضهم أوجب للعن لعن أبي بكر
وعمر وعثمان ومعاوية .. ولعن عائشة وحفصة .. وعند - زوج
أبي سفيان - ولم الحكم - أخت معاوية - .. لعنهم باسمائهم عقب
كل صلاة !!

وذكر الحر العاملي - في كتابه (وسائل الشيعة) ج ٢ ، ص ١٠٣٧
بأياً عنوانه : (استحباب لعن أعداء الدين عقوب الصلاة بأسمائهم) ..
ونسب ذلك إلى أبي عبد الله - جعفر الصادق - زاعماً أنه " كان يلعن
دير كل مكتوبة أربعة من الرجال وأربعاً من النساء " !!

* وذكر المرعشي - في كتابه (إخفاق الحق) ج ١ ، ص ٩٧ ،
وصف أبي بكر وعمر " بصنمي قريش " .. وأثبت نص الدعاء عليهما !!
وهو نص طويل ، تطبعه وتذيعه نواثر شيعية .. وتضعه على مواقع
الإنترنت .. فتشيع ما فيه من الفواحش الفكرية بين العامة ، مسلمين وغير

(١) لآين المطهر الحلي كتاب (الأئمة) يورد فيه ألفي دليل على وجوب لعن أبي بكر
وعمر - رضي الله عنهما وأرضاهما - !! ..

مسلمين !! .. وتنافسها في إشاعة هذا ' ادعاء ' السلفية الوهابية ، لتفضيح الشيعة بين الناس !!

* وعلى الرغم من أن الإمام علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — قد شهد بالإيمان والأخوة في الدين حتى للذين حاربوه وقايلوه ، لأن الخلاف والقتال إنما كان في السياسة والخلافة — وهي من الفروع ، التي يؤجر حتى المخطئ فيها .. ولم يكن الخلاف في أصول الاعتقاد الديني فقال كرم الله وجهه عندما سئل عن رأيه في أهل الشام — معاوية ابن أبي سفيان وأنصاره — إبان قمة الصراع بينهما في موقعة ' صفين ' (٢٧هـ/٦٥٧م) :

" لقد التقينا ، وربنا واحد ، ونبينا واحد ، ودعوتنا في الإسلام واحدة ، ولا نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا ، والأمر واحد ، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ، ونحن منه براء ..
إننا — والله — ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء — (الخوارج) من التكفير والافتراق في الدين ، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة — (أي الجماعة السياسية) — وإنهم لإخواننا في الدين ، قبلتنا واحدة ، ورأينا أننا على الحق دونهم " (١) .

(١) الباقلاني : (التمهيد في الرد على الملحدة والمعتزلة والرافضة والخوارج والمعتزلة) ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، تحقيق : محمود الخضيرى ، ٥ ، محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٤٧م ، وابن أبي الحديد : (شرح نهج البلاغة) ج ١٧ ، ص ١٤١ . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٩م .

على الرغم من ذلك ، ينقل الشيخ المفيد — في كتابه (أوائل المقالات) ص ٤٥ — اتفاق الإمامية — على تكفير الذين قاتلوا علياً .. ويصفهم "بائناكثين والقاسطين والكفار والضلال الملعونين المخلدن في النار " !!
* ويحكم شيخ الشيعة جعفر مرتضى — في كتابه (حديث الإفك)

ص ١٧ علي أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — بالكفر !!
ويقول عنها يوسف البحراني — في كتابه (الشهاب الثاقب في بيان معنى المناصب) ص ٢٣٦ : " إنها ارتدت بعد موت النبي ﷺ كما اردت ذلك انجم الغفير المجزوم بإيمانهم سابقاً .. وأنها مستحقة للنار واللعن والعذاب ، وأن ذلك من مستلزم مذهب الشيعة وأحقية أئمتهم الإثني عشر " !!

أما النجفي القمي — محمد طاهر بن محمد حسين الشيرازي التتجفي القمي — المتوفي سنة ١٠٩٨م — فيقول عن السيدة عائشة — رضى الله عنها — في كتابه (الأربعين في إمامة الأئمة الطاهرين) ص ٦١٥ ، ٦١٦ :
" ومما يدل على إمامة أئمتنا الإثني عشر ، أن عائشة كافرة مستحقة للنار ، وهو مستلزم لحقية مذهبنا وحقية أئمتنا الإثني عشر ، لأن كل من قال بخلافة الثلاثة — (أبي بكر ، وعمر ، وعثمان) — اعتقد إيمانها وتعظيمها وتكريمها ، وكل من قال بإمامة الإثني عشر . قال باستحقاقها اللعن والعذاب " !!

* ولقد ذهب كبار علماء الشيعة الإثني عشرية إلى تعميم الحكم بالكفر والشرك على كل من عداهم .. فالمجلسي — في كتابه (بحار الأنوار) ج ٢٣ ص ٣٩٠ — يقول :

* اعلم أن إطلاق لفظ الشرك والكفر على من لم يعتقد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من ولده .. يدل على أنهم مخلدون في النار !
ويؤكد على ذلك شيخهم عبد الله المامقاني — في كتابه (تنقيح المقال) ج ١ ص ٢٠٨ — فيقول :

" وغاية ما يستفاد من الأخبار جريان حكم الكافر والمشرك في الآخرة على كل من لم يكن اثني عشرياً !

* وحتى الخميني — في كتابه (الأربعين) ص ٥١١-٥١٣ ، يجعل قبول الإيمان بالله ورسوله مقصوراً على الشيعة المؤمنين بالأئمة الإثني عشر دون عداهم !

وكذلك الحال — عنده في قبول الأعمال .. فلقد عقد في هذا الكتاب فصلاً — ص ٥١٢ — جعل عنوانه : (فصل في بيان أن ولاية أهل البيت شرط لقبول الأعمال) !! .. فكان الاختلاف معهم حول أي من أئمتهم الإثني عشر شرك محبط للإيمان .. ومحبط للأعمال الصالحات !! ..

* بل وبلغ بهم الأمر حد إعلان أن المفارقة بينهم وبين سائر من عداهم إنما تشمل المفارقة في الألوهية والنبوة !! .. فنكر شيخهم نعمة الله الجزائري — المتوفى سنة ١٢١٢هـ — في كتابه (الآثار النعمانية) ج ٢ ، ص ٢٧٩ (١) :

* "إننا لم نجتمع معهم على إله ، ولا نبي ، ولا على إمام ، وذلك أنهم يقولون : إن ربهم هو الذي كان محمداً نبياً ، وخليفته أبو بكر ، ونحن

(١) طبعة مؤسسة الأعلى — بيروت .

لا نقول بهذا الرب ولا بذلك النبي ، بل نقول : إن الرب الذى خلّقه
أبو بكر ليس ربنا ، ولا ذلك النبي نبينا * !! ..

* ويروى الكليني هذا الحكم القاطع بكفر كل من عدا الشيعة
الإثنى عشرية .. يرويه - فى (الكافى) ج ١ ، ص ٢٢٣ - عن الرضا ،
الذى يقول :

* "إن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم ، أخذ الله علينا وعليهم
الميثاق ، يردون موردنا ويدخلون مدخلنا ، ليس على ملة الإسلام غيرنا
وغيرهم إلى يوم القيامة " !!

* وإذا كانوا يطلقون على كل من عدا فرقته - الإثنى عشرية -
صفة "النواصب" - أى الذين ناصبوا أئمتهم العداء - .. فإن "الناصب"
عندهم - كما يقول نعمة الله الجزائرى - فى كتابه (الأنوار النعمانية)
ج ٢ ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ - : "نجس ، وأنه شر من اليهودى والنصرانى
والمجوسى ، وأنه كافر نجس بإجماع علماء الإمامية " !!

وبعبارة شيخهم الكبير ومرجعهم محمد الشيرازى - فى موسوعته
(الفقه) ج ٤ ، ص ٢٦٩ :

"فإن من جحد إماماً من الأئمة الإثنى عشر - بمن فى ذلك سائر
أقسام الشيعة غير الإثنى عشرية - هم "كمن قال إن الله ثالث ثلاثة " !!
" وحتى الإمام أبو القاسم الخوئى - وهو الذى توفى من سنوات
قليلة - فإنه يقول - فى كتابه (مصباح الفقاهة) ج ٢ ، ص ١١ :

"إنه ثبت بالروايات والأدعية والزيارات جواز لعن المخالفين ،
ووجوب البراءة منهم ، وإكثار السب عليهم ، واتهامهم ، والوقيعة فيهم

— أى غيبتهم — لأنهم من أهل البدع والريب ، بل لا شبهة فى كفرهم ، لأن إنكار الولاية والأئمة حتى الواحد منهم والاعتقاد بخلافه غيرهم .. يوجب الكفر والزندقة ، وتدل عليه الأخبار المتواترة الظاهرة فى كفر منكر الولاية * !!

* وإذا كان جمهور أهل السنة ، هم — فى العقائد — على المذهب الأشعرى — نسبة إلى إمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعرى (٢٦٠-٣٢٤هـ/٨٧٤-٩٣٦م) — فإن الأشعرية — بنظر الشيعة الإثني عشرية — كفارة بل وأسوأ من المشركين والنصارى ! .. وبعبارة الشيخ نعمة الله الجزائري — فى كتابه (الأنوار النعمانية) ج٢ ، ص٢٧٨ — :
" فالأشاعرة لم يعرفوا ربهم بوجه صحيح ، بل عرفوه بوجه غير صحيح ، فلا فرق بين معرفتهم هذه وبين معرفة باقى الكفار .. فالأشاعرة ومتابعوهم أسوأ حالاً فى باب معرفة الصانع من المشركين والنصارى .. ولقد تباينا وتفصلنا عنهم فى باب الربوبية ، فربنا من تغرد بالقدم والأزل ، وربهم من كان شركاؤه فى القدم ثمانية " 11

* بل لقد صعد بعض علماء الشيعة بالمفارقة والعداء والتكفير من نطاق أصول الاعتقاد إلى نطاق " العنصرية " أيضاً .. فذكر الشيخ المفيد — فى كتابه (الأمالى) ص١٦٩ — :
" أنه ليس أحد طاهر المولد ، وليس أحد على ملة الإسلام إلا الشيعة " !! ..

هذه نماذج وأمثلة — مجرد نماذج وأمثلة — لهذا " الفحش الفكرى " ،
الذى أثمره التعصب الطائفى والضلال المذهبى ضد جمهور أمة الإسلام ،
الذين يعبدون الله وحده .. ويؤمنون بنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين — محمد
بن عبد الله ﷺ — ويحبون آل بيته ، الذين أذهب الله عنهم الرجس
وطهرهم تطهيراً — بنص القرآن الكريم : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم
الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً ﴾ (١) .

وإذا كان هذا " الفحش الفكرى " قد ظل لقرون طويلة وقفاً على
التدريس فى الحوزات العلمية الشيعية .. وعلى الباحثين فى أصول المذهب
الشيعى وعقائده .. وتخفيه " التقية " فى أغلب الأحيان عن الثقافة العامة
للشيعية .. فإن ثورة وسائل الاتصال الحديثة — بما فى ذلك " مواقع "
الشبكة العالمية للمعلومات — قد أشاعت هذا " الفحش الفكرى " بين العامة
والجمهور ، فأشعلت نيران الفتنة بين جماهير الأمة ، فى وقت تحتاج فيه
" الصليبية — الصهيونية " أمة الإسلام وعالمه وحضارته ، دون تمييز
بين الطوائف والمذاهب والأقطار والقوميات فى عالم الإسلام ! ..

بل إن المغارقات الغربية قد جعلت نقرأ من السلفيين — فى حربهم
ضد الشيعة .. ومحاولتهم فضح نزعتهم التكفيرية — يسهمون فى إشاعة
هذا " الفحش الفكرى " ، وذلك عندما ينقلونه من بطون الكتب التراثية

المتخصصة إلى الكتب الجمهورية ، ومواقع الشبكة العالمية للمعلومات !! (١) .

الأمر الذي يستدعى وقفة جادة نواجه بها هذا الخطر الذي يشعل نيران التكفير في صفوف الأمة .. وينشر لهيب هذه النيران بين العامة والجماهير .

• • •

إن المجتمع الشيعي — في الحوزات والجامعات ومؤسسات البحث والدراسة — يزخر بالعقلاء من الفقهاء والعلماء .. ونحن — من موقع الحب والتقدير والإجلال — نتوجه إلى هؤلاء العلماء العقلاء .. فنقول لهم :

إن الذين أزلوا طاغوت الفرس والروم — قبل أربعة عشر قرناً — وفتحوا أبواب كل البلاد أمام الإسلام هم الصحابة ، الذين صنعوا هذا المجد التاريخي تحت قيادة أبي بكر الصديق (٥١ ق.هـ — ١٣هـ / ٥٧٣ — ٦٣٤ م) والفاروق عمر بن الخطاب (٤٠ ق.هـ — ٢٣هـ / ٥٨٤ — ٦٤٤ م) .. أي أن هؤلاء هم السبب — الذي يصره الله — لوصول الإسلام إلينا وإليكم .. ولولاهم فلربما كنتم تعبدون أنوار أو الصليبان أو العجل أبيس حتى هذه اللحظات !!

(١) انظر — على سبيل المثال — كتاب (الشيعة الإثني عشرية وتكفيرهم لعموم المسلمين) تأليف عبد الله بن محمد السلفي . طبعة مكتبة الرضوان السلفية — كوم حماده — البحيرة — مصر سنة ٢٠٠٤ م .. وكذلك العديد من المواقع السلفية على شبكة الإنترنت .

فيل يجوز — في العقل والمنطق والحكمة — أن نكفر ونلعن من كان
السبب في نعمة الإسلام التي هي أعظم نعم الله علينا ١٢ .

* لقد نقيت في طهران — في أولى زيارتي لها — واحدا من نبيهاء
الشيعة ، الذين تجاوزوا — بالعقلانية والاستقامة — هذا التراث المظلم الذي
يمزق وحدة الأمة الإسلامية .. وحدتي — يومئذ — عن لون من "ثقافة
الشعبية" الشائعة في صفوف عوام الشيعة .. حدثني عن والدته ، التي
تتقرب إلى الله — سبحانه وتعالى — عقب كل صلاة ، فتدعو — على
مسبحتها — فتقول : " اللهم العن أبا بكر ثم عمر " !!! ..

وإذا كنت قد شعرت بالحزن الشديد — يومئذ — لشيوع مثل هذا
" الفحش الفكري " بين العامة من الشيعة .. ولجعل هذا " الفحش الفكري "
ديناً وقرباً يقترب بها البعض إلى الله — سبحانه وتعالى — ؛ فإن الحزن
الأشد قد أصابني عندما علمت أن هذا " الفحش الفكري " ليس مجرد
تعصب أعمى يمارسه العامة .. وإنما هو " فكر مذهبي " تتناقله المصادر
التراثية الشيعية التي تدرس في الحوزات العلمية ، وتتشكل به وتضطرب
عقول الفقهاء والعلماء والمراجع التي يقرأها العوام .. بل وتطبعه
وتوزعه .. بالمجان — نور نشر ومكتبات .. ويضعه البعض — من
الشيعة أو من خصومهم — على مواقع الشبكة العالمية للمعلومات .. ليشتيع
بين العامة والجماهير ! ..

* وها هو المرعشي — القاضي ضياء الدين نور الله التمسكي
(٩٥٦-١٠١٩ هـ/١٥٤٩-١٦١٠م) يورد في كتابه (إحقاق الحق وزهق

(الباطل) - ج ١ ، ص ٩٧ - دعاءهم على أبي بكر الصديق والفاروق
عمر بن الخطاب ، الذي يزعمون أنهم يتقربون به إلى الله ! .. ونصه :
” بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صل على محمد وآل محمد . اللهم
العن صنمى قريش وجبتيهما وطاقوتيهما ، وإفكيهما وابنتيهما^(١) . الذين
خالفوا أمرك ، وأنكروا وحيك ، وجحدوا إبعامك ، وعصوا رسولك ، وقلبوا
دينك ، وحرّفوا كتابك ، وعطّلوا أحكامك ، وأبطلوا فرائضك ، وأخذوا فى
آياتك ، وعادوا أوليائك ، ووالوا أعداءك ، وخربوا بلادك . وأفسدوا عبادك .
اللهم العنهما ، وأتباعهما وأولياءهما ، وأشياعهما ، ومحبيهما^(٢) ،
فكّ خرابيا بيت النبوة ، وردما بابيه ، ونقضا سقفه ، وألحقا سماءه بارضاه
وعاليه بسافنه وظاهره بباطنه ، واستأصلا أهله ، وأبادا أنصاره . وقتلا
أطفاله ، وأخليا منبره من وصيّيه ووارث علمه ، وجحدوا إسماته ، وأشركوا
بربهما ، فعضّم ذنبيهما وخدّهما فى سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى
ولا تترك .

اللهم العنهم بعدد كل منكر أتوه ، وحق أخفوه ، ومنبر علوه ،
ومؤمن أرجأوه ، ومنافق وثّوه ، وولى أنوه ، وطريد أووه ، وصالح
طردوه ، وكافر نصرّوه ، وإمام قهرّوه ، وفرض غيّرّوه ، وأثر أنكروه ،
وشر أثروه ، ودم أراقوه ، وخبر بثّوه ، وحكم قلبّوه ، وكفر أبدعّوه ،
وكذب دلّسّوه ، وإرث غصبّوه ، وفى اقتطعّوه ، وسحت أكلّوه ، وخمس

(١) أى أسهات المؤمنين عائشة وحفصة - رضى الله عنهما - .

(٢) أى أن اللعن والدعاء ليس فقط على أبى بكر وعمر ، وإنما على جمهور الأمة
الإسلامية - ٩٠% من المسلمين - !! ..

استحلوه ، وباطل أسنوه ، وجور بسطوه ، وظلم نشره ، ووعد أخلفوه ، وعهد نقضوه ، وحلال حرّموه ، وحرام حلّوه ، ونفاق أسروه ، وعذر أضروه ، وبطن ففّقوه ، وضيع كسّروه (دقّوه) ، وجنين أسقطوه ، وصك مزقوه ، وشمل بدّدوه ، وعزّيز أنلّوه ، وذليل أعزّوه ، وحقّ منعه ، وإمام خالفوه .

اللهم العنهما بعدد كل آية حرّفوها ، وفريضة تركوها ، وسنة غيروها ، وأحكام عطّلوها ، ورسوم منعوها ، وأرحام قطعوها ، وشهادات كتموها ، ووصية ضيّعوها ، وإيمان نكّثوها ، ودعوى أبطلوها ، وبينة أنكروها ، وحيلة أهدّثوها ، وخيانة أوزدوها ، وعقبة ارتقوها ، ودياب دحرجوها ، وأزياف لزموها ، وأمانات خاتوها .

اللهم العنهما في مكنون السر ، وظاهر العلانية لعناً كثيراً دائماً أبداً سرمداً لا انقطاع لأمداه ، ولا نفاذ لعدده ، لعنا يغدوا أوله ولا يروح آخره ، لهم ولأعوانهم وأنصارهم ، ومحبيهم ومواليهم ، والمائلين إليهم ، والناهضين بأجنتهم ، والمقتدين بكلامهم ، والمصدقين بأحكامهم .

(قل أربع مرات) : الله عذبهم عذاباً يستغيث منه أهل النار ، آمين رب العالمين .

(ثم تقول أربع مرات) اللهم العنهم جميعاً .

اللهم صل على محمد وآل محمد ، وأغنني بحلالك عن حرامك ، وأغنني من الفقر . ربّ إني أسأت وظلمت نفسي ، واعترفت بذنوبي ، وما أنا بين يديك فخذ لنفسك رضاها . لك العبي ، لا أعود ، فإن عدت

فعد على بالمغفرة والعفو لك بفضلك وجودك ومغفرتك وكرمك يا أرحم
الراحمين .

وصل الله على سيد المرسلين وخاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين
برحمتك يا أرحم الراحمين " (١) .

* * *

فهل هذا — " الفحش الفكرى " — معقول ؟!

" وهل هذا يليق بمن يتحدثون عن وحدة الأمة الإسلامية فى مواجهة "
" الصليبية — الصهيونية " التى تعصف بكل ما هو إسلامى ، دون تمييز
بين مذاهب المسلمين ؟!

وهل نظل — هكذا — عاجزين — ولا أقول راضين — أمام هذه
" الأكغام المنفجرة " ، التى تستخدم صباح مساء فى كسر شوكة الوحدة
الإسلامية ؟!

إننا نتوجه بهذه التساؤلات إلى العلماء العقلاء الذين تمثلون
بهم فضاءات الشيعة وجامعاتها .. ولا تخلو منهم الحوزات العلمية
التي يتخرج منها هؤلاء العلماء ! ..

(١) (الشيعة الإثني عشرية وتكفيرهم لعموم المسلمين) ص ٤٣-٤٥ .

حقائق .. وأوهام

عندما قامت الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م ، بقيادة آية الله الخميني — الذي حرك الجماهير الشعبية الإيرانية على نحو غير مسبوق في التاريخ الإيراني — .. بهزت هذه الثورة جماهير الأمة الإسلامية ، فتعاطفت معها ، ومنحتها التأييد والولاء ، على الرغم من الموقف المعادي لهذه الثورة من قبل الاستعمار والصهيونية والكثيرين من الحكام في وطن العروبة وعالم الإسلام .

واليوم ، يتكرر ذات المشهد — من التأييد الشعبي الإسلامي — إزاء الصمود البطولي الذي قام به المجاهدون من شباب " حزب الله " — الشيعي — في لبنان ، أولئك الذين لقنوا الجيش الصهيوني — ومن ورائه أمريكا — درساً سيكون له ما بعده في سجل الصراع التاريخي بين أمّةنا الإسلامية وبين الصليبية الغربية وريبتها الصهيونية — إن شاء الله — ..

* وكما حدث بالأمس — عندما قامت الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م — عندما حاول البعض ربط الثورة والثورية بالمذهب الشيعي ، وبتقافة الجهاد والاستشهاد لدى هذا المذهب ، للقيام بتحويل بعض انشباب عن المذهب السني إلى التشيع .. تتكرر ذات الأفكار وذات المحاولات ، لإقناع بعض الشباب ، المنبهر بأداء المقاومة الشيعية في لبنان بالتحول عن السنة إلى

الشيعية ، بدعوى الارتباط بين الثورية والروح الجهادية وبين الشيعة كمذهب وثقافة واتجاه ..

* وللإجابة على التساؤلات التى طرحها ويطرحها بعض الشباب حول هذا الموضوع — الهام والحساس — نقدم هذه الحقائق الفكرية والتاريخية — بل والمعاصرة — التى ترسم الصورة الصادقة ، من جميع جوانبها وزواياها ، أمام عقول الشباب .. وذلك إغاثة لهم على التفكير الموضوعى السليم .. وهى حقائق نقدمها فى عدد من النقاط :

(١)

يجب أن نميز بين الإعجاب بالمقاومة التى تقوم بها حركات التحرر الوطنى والقومى والإسلامى ، وبين المذاهب والعقائد التى تعتنقها هذه الحركات .. فكل شعوب الدنيا — وعلى مر التاريخ .. ورغم تعدد دياناتها ومذاهبها — قد خاضت غمار الثورات .. وكثيرون منها قد مارسوا البطولات فى مواجهة الغزاة والمستبدين .. ومن الخطأ البين أن يقودنا الإعجاب بثورات هذه الشعوب وبطولاتها إلى الإعجاب بدياناتها وعقائدها ومذاهبها ، فنتحول عن عقائدنا ومذاهبنا إلى هذه العقائد والمذاهب التى تؤمن بها تلك الشعوب ..

* لقد انههر العالم كله ببطولات الجيش السوفييتى فى معركة " ستالينجراد " ، التى فتحت الطريق أمام انهيار النازية والفاشية — فى الحرب العالمية الثانية — .. وذلك دون أن ينهر أحد بالعقيدة القتالية

للجيش الأحمر ، أو ينبغي بماركسية قائد ذلك الجيش " جوزيف ستالين " (١٨٧٩-١٩٥٣م) !

* ولقد أيننا جميعاً المقاومة الفيتنامية الباسلة ، وأعجبنا ببطولات الشعب الفيتنامي ضد الاستعمار الفرنسي والأمريكي .. لكننا لم نمنح هذا الإعجاب للبوذية الفيتنامية ، ولا لماركسية الحزب الشيوعي الفيتنامي ، الذي قاد هذا النضال وسطر تلك البطولات .. ومن ثم لم يتحول أحد منا إلى البوذية ولا إلى الشيوعية ! ..

* ولقد وقف أحرار العالم — من كل الديانات والمذاهب والفلسفات — مع المقاومة البطولية للشعب الفرنسي ضد الاحتلال النازي — إبان الحرب العالمية الثانية — وهي المقاومة التي قادها الشيوعيون الفرنسيون ، وانخرط فيها الوجوديون الفرنسيون .. وذلك دون أن يمتد هذا التأييد العالمي للشيوعية .. ولا للوجودية ، كمذاهب يعتنقها هؤلاء المقاومون ! ..

* واليوم يمنح أحرار العالم إعجابهم وتقديرهم لتيارات اليسار في أمريكا الوسطى والجنوبية — من " كاسترو " — في كوبا — إلى " تشايفز " — في فنزويلا — .. هذا اليسار الذي يقاوم الطواغوت الإمبريالي الأمريكي وذلك دون أن يعنى هذا أن نتحول إلى المذاهب اليسارية التي يتمذهب بها هؤلاء المقاومون ! ..

* بل ولقد سبق لجماعير عريضة من شباب العالم أن فتنت بالمقاومة الأسطورية " لجيفارا " .. لكنها لم تفتن " بالماركسية .. اللينينية .. الماوية " التي حركت هذا البطل الأسطوري " جيفارا " !

وهكذا يستبين لنا أن الربط العضوي والحتمي بين " المقاومة " وبين
 " مذهب " أهلها .. ومن ثم الربط بين الإعجاب بهذه المقاومة وبين التحول
 إلى مذاهب أهلها .. هو وهم كبير وخطير ، يروج له بعض الخبيثاء فى
 أوساط الذين لا يعلمون ولا يفقهون ! ..

(٢)

ثم .. من قال إن التشيع قد ارتبط — تاريخياً — بالثورة والمقاومة
 لحكام الجور .. وإن أهل السنة قد كانوا مستسلمين ، أو أقل مقاومة من
 الشيعة عبر تاريخ الإسلام ؟ ..

إن هذه المقولة — التى يروج لها الخبيثاء فى صفوف الجهلاء — هى
 الأخرى وهم من الأوهام .. بل ومضادة للحقائق الصلبة التى امتلأت بسيا
 صفحات التاريخ ..

* لقد فتح المسلمون الأوائل فى ثمانين عاماً أوسع مما فتح الرومان
 فى ثمانية قرون .. وأزالوا القوى العظمى التى استعمرت الشرق وقهرته
 — دينياً .. وثقافياً .. ولغوياً .. وحضارياً — لأكثر من عشرة قرون — من
 الإسكندر الأكبر (٣٥٦—٣٢٤ ق.م) فى القرن الرابع قبل الميلاد — إلى
 " هرقل " (٦١٠—٦٤١ م) — فى القرن السابع للميلاد .

وبهذا الفتح الإسلامى المبين ، فتح هؤلاء الفاتحون الطريق أمام
 انتشار الإسلام من المغرب — غرباً — إلى الصين — شرقاً — ومن حوض
 نهر الفولجا — شمالاً — إلى جنوبى خط الاستواء ..

وجميع هؤلاء الفاتحين — من الخلفاء والصحابه والمجاهدين — يتولاهم أهل السنة ، ويصلون ويسلمون عليهم ، ويعتبرونهم الأئمة والقادة الذين أقاموا الدين ونشروه ، وأسسوا الدولة ومدوا لها الحدود .. وأثم الله على أيديهم هذه النعمة التي نعيش فيها وعليها حتى يومنا هذا .. بل وكانوا هم المؤسسين لقواعد الحضارة الإسلامية التي أنارت العالمين ..

بينما الشيعة — باستثناء الزيدية — قد حرموا أنفسهم — مع شديد الأسف — من هذا الرصيد التاريخي المجيد ، وذلك عندما حكموا على جمهور هذا الجيل الفريد — من الصحابة — بالكفر والردة .. بل وأوجبوا لعنهم والبراءة منهم — والعياذ بالله — ! ..

لذلك ، كانت هذه الفتوحات وهذه البطولات ، التي لولاها لما دخلت شعوبنا في دين الإسلام ، كانت رصيذاً للتاريخ السنى في ميادين الفتوحات والبطولات والتحرير للأرض وللضمير .. ولا أثر لها في تاريخ الشيعة والشييع — مع الأسف الشديد — ! ..

(٣)

وعندما جاء الغرب الصليبي ليختطف الشرق من التحرير الإسلامى — إبان الحروب الصليبية (٤٨٩-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م) — رأيناه يغتصب القدس وفلسطين والشام من الدولة الفاطمية الشيعية — التي كانت عقيدتها الباطنية بداية الانحطاط في التاريخ الإسلامى — كما يقول

جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ/١٨٣٨-١٨٩٧م)^(١)، ووجدنا
- على العكس من ذلك - دول الفروسية الإسلامية السنية - وخاصة
الأيوبيية (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م) والمملوكية
(٦٤٨-٩٢٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) - هي التي جاهدت وحاربت حتى
استعادت الشرق وحررت مقدسات الإسلام من الصليبيين .

وإذا كان صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ/١١٣٧-١١٩٣م)
قد أصبح علماً على الجهاد الإسلامي عبر تاريخ الإسلام ، فإنه هو القائد
السني ، الذي خلّص بلاد الإسلام من انحراقات الشيعة الإسماعيلية
الباطنية .. كما خلّص هذه البلاد من أشرس حملات الصليبيين .. بينما هو
مرفوض عند الشيعة - مع الأسف الشديد - : ..

وكذلك صنعت جماهير أهل السنة ، وجيوشهم وقاداتهم ، عندما
حرروا ديار الإسلام من الحرية النثرية المدمرة ، التي هددت الوجود
الإسلامي .. فالذين قهرّوا التتار في " عين جالوت " (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)
هم أهل السنة .. والذين استعادوا بغداد من التتار هم أهل السنة .. بينما
الخيانة التي فتحت أبواب بغداد أمام " هولاكو " (١٢١٧-١٢٦٥م) كانت
من الآخرين !! ..

إذن .. فرصيد الجهاد والفداء والاستشهاد الذي حرر الشرق من
التقهر الاستعماري القديم .. ففتح أبواب هذا الشرق أمام الإسلام .. إنما
يصب في تاريخ السنة ، الذي هو تاريخ جمهور الأمة .. وكذلك الحال

(١) (الأعمال الكاملة) ص ١٥٨-١٦١ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة
القاهرة ، سنة ١٩٦٨ م .

مع رصيد الجهاد والفداء والاستشهاد الذى حرر الشرق الإسلامى
— مرة ثانية — من الصليبيين الذين أرادوا اختطاف هذا الشرق من
الإسلام .

(٤)

وفى عصرنا الحديث .. وبعد أن استغل الاستعمار الغربى " التشيع
الصفوى الإيرانى " فى إضعاف الدولة العثمانية .. ثم أخذ فى احتلال
ولايات هذه الدولة الإسلامية الجامعة ، ولاية بعد ولاية ، حتى عمت بلوى
الاستعمار — الإنجليزى .. والفرنسى .. والإيطالى — أغلب بلاد الإسلام .
من الذى قاد حركات التحرر الوطنى التى دفنت هذه الإمبراطوريات
الاستعمارية فى أرض الشرق الإسلامى ؟؟

إنهم أهل السنة ، الذين يكوتون ٩٠% من تعداد أمة الإسلام .. فهم
الذين حرروا الجزائر من القهر الاستعمارى الفرنسى ، وقاتلوا على مذبح
حريتها قرابة المليونين من الشهداء !! وهم الذين حرروا مصر من
الاستعمار الإنجليزى ، لتعود إلى قيادة حركات التحرر الوطنى والقومى
على امتداد ديار الإسلام فى آسيا وإفريقيا .

وهم الذين قادوا ويقودون حتى هذه اللحظات حركات التحرر الوطنى
والجهاد الإسلامى على أرض فلسطين .. والعراق .. والشيشان ..
وكشمير .. والفلبين .. والصومال .. والسودان .. وأفغانستان .. إلى أخو
ميادين الجهاد والتحرر الوطنى فى عالم الإسلام .

بينما رأينا - ونرى - قطاعات من الشيعة - فى العراق - يتحالفون مع أمريكا ضد المقاومة السنية للاحتلال ١ .. ورأينا التشيع الإيراني يساعد أمريكا على احتلال أفغانستان - لأسباب مذهبية ضيقة الأفق - ويصنع ذات الخطيئة مع أمريكا ضد العراق ١ ..

لذلك .. فإن الربط بين بطونة " حزب الله " على أرض لبنان وبين التشيع - كمذهب - هو خطأ فكرى .. ووهم لا نصيب له من الصدق والموضوعية .. فهنا - فى لبنان - شيعة أبطال ، يحاربون الصهيونية والاستعمار .. وهناك - فى العراق - شيعة ، فتحو أبواب العراق أمام الغزاة الأمريكان ، وأمام الاختراق الصهيونى ، بل ودخلوا بغداد على ظهور الدبابات الأمريكية ١ .. ويحكمون الآن من السفارة الأمريكية فى " المنطقة الخضراء " ١ ..

بل إن فى إيران - التى تساعد " حزب الله " العربى - تشيعاً فارسياً يضطهد ، ليس فقط أهل السنة الإيرانيين ، وإنما يضطهد - كذلك - الشيعة العرب والتركمان والأكراد فى إيران ١ ..

فالمذهب شىء .. والموقف الوطنى والجهادى شىء آخر .. والصمود والبطولات ليست حكراً على مذهب بعينه .. ولا دين بذاته .. ولا فلسفة دون غيرها من الفلسفات .. كما يحاول بعض الخبثاء أن يوهموا بعض الذين لا دراية لهم بحقائق الفكر والمذاهب والتاريخ ..

بل إن تاريخ الشيعة - كمذهب - لم يعرف انخراطهم في الثورات
ضد الحكام الظلمة وضد الاحتلال الأجنبي إلا في القرن العشرين 1 .. فلقد
ظلوا طوال تاريخهم - منذ الإمام جعفر الصادق
(٨٠-١٤٨هـ/٦٩٩-٧٦٥م) يعلقون الاشتغال بالسياسة والقيام بالثورة ..
وبناء الدولة على عودة الإمام الغائب (٢٥٦هـ/٨٧٠م) .

وكان أهل السنة هم الذين يقودون الثورات وحروب التحرر الوطني
والقومي والجهاد الإسلامي طوال هذا التاريخ .

* وإذا كنا نمنح الإعجاب والتأييد - كل الإعجاب والتأييد -
للمقاومة الباسلة " لحزب الله " في لبنان و " حماس " و " الجهاد " في
فلسطين .. فإننا نمنح الإعجاب للإسلام الذي يحرك الأمة - بالجهاد -
ويدفعها إلى المقاومة .. وليس لمذهب من المذاهب التي يحتضنها
الإسلام .. وإلا لتغيرت مذهبنا ، بل ودياننا تبعاً للمذاهب والديانات التي
سادت وتسود في المجتمعات التي قاومت وقاتلت الجباية والمستعمرين .
* ولو كان " المذهب " هو المعيار .. فهل نطلب من الشيعة المعجبين
ببطولات " حماس " في فلسطين ، أن يتحولوا من التشيع إلى السنة .. كما
يفكر البعض في التحول إلى الشيعة بسبب الإعجاب ببطولات المقاومة
الشيعة في لبنان !!!

وأخيرا .. فإن هناك حقيقة اجتماعية هامة وخطرة ، تقول :

إن الوحدة المذهبية لأى مجتمع من المجتمعات هي مصدر هام من مصادر قوة هذا المجتمع وتماسك نسيجه الوطنى ، تعينه على الصمود فى مواجهة التحديات - الداخلية .. والخارجية - .. لذلك ، فإن خلخلة الوحدة المذهبية فى المجتمعات السنية يحولها إلى مجتمعات طائفية هشة لا قوام لها ، ولا قدرة لها على الصمود فى وجه الغزاة .. ومن هنا فإن زرع خلايا شيعية فى المجتمعات السنية ، أو زرع خلايا سنية فى المجتمعات الشيعية ، هو عامل تفكيك ، يفتح الثغرات أمام الاجتياح الخارجى ، ويخلق " الأوراق " التى يلعب بها الاستعمار .

لذلك ، فإن من حقنا جميعا - بل ومن واجبنا - أن نمنح كل الشايد والإعجاب والتعجب لجميع حركات المقاومة الوطنية والقومية والإسلامية فى لبنان .. وفلسطين .. والعراق .. وأفغانستان .. والتشيشان .. وكشمير .. والصومال .. والفلبين .. الخ .. الخ . ولكن ، دون أن نقع فى الوهم الذى يزعم أصحابه أن المقاومة هي حكر على مذهب دون مذهب .. أو نقع فى حطينة خلخلة النسيج المذهبى والاجتماعى لمجتمعاتنا العربية والإسلامية .. فحقائق التاريخ .. وحقائق الواقع أكبر وأصدق من جميع الأوهام .

إن تحويل الشعب إلى طوائف هو هدف ثابت من أهداف الاستعمار . لأن هشاشة المجتمعات الطائفية تسهل اختراقها على الاستعمار .

وأريكا التى شارب الشيعة فى لبنان .. هي التى تستعين بهم فى العراق .. وتدافع عنهم فى مصر !! .

وعندما جاء بونابرت (١٧٦٩-١٨٢١م) ليحتل مصر سنة ١٧٩٨م
راهن على الأقباط في مصر .. وعلى اليهود في فلسطين .. دون أن يكون
أى احترام لا للأقباط ولا لليهود .. لقد تحدث عن ما سماه " الأمة القبطية "
فقال : " سوف يستغنى أن أحميها .. وأعيد لها الكرامة والحقوق التي
لا يمكن فصلها عن الإنسان " .

أما " النظم " الذي أراده من الأقباط ، فهو — بضرب عبارته — :
" محاذية أبناء الأمة القبطية بالكثير من الحماسة والإخلاص في خدمة
الجمهورية الفرنسية " !!

ولنتذكر — جميعا — كلمات بونابرت عن الأقباط ، التي يقول فيها :
" إنهم أناس لنام في البلاد ، ولكن يجب مراعاتهم لأنهم الوحيدون الذين
في يدهم مجمل الإدارة للبلاد .. لقد حصلت منهم على سجلات هائلة حول
قيمة الضرائب المفروضة على مصر " !! (١) .

ألا قاتل الله الطائفة .. واللعب بأوراقها .. ولعن الله الخبثاء الذين
يسلكون سبيل المذهبية لخلطة النسيج الاجتماعي في مجتمعات الإسلام ،
سواء أكان هذا النسيج سنيا — في المجتمعات السنية — أو شيعيا — في
المجتمعات الشيعية ..

وعلى من يفكر في أن يتحول من السنة إلى الشيعة — في مجتمع
سنى — أن يدرك أنه بذلك التحول سيعزل نفسه عن محيطه ، ويحول

(١) صحيفة (وطنى) وثائق نشرها عادل جدى — تحت عنوان " المخططات الخطيرة "

جهوده ضد ذلك المحيط ! .. وكذلك الحال مع الشيعة الذي يفكر في التحول إلى السنة — في محيط شيعي — ..
فنحن جميعا مسلمون .. وعلينا أن نوجه كل طاقاتنا لتحرير بلادنا من القهر الاستعماري والاستبداد الداخلي .. لا أن نفرغ طاقاتنا في العبث المذهبي . الذي لن يفيد منه سوى الأعداء !

(٧)

لكن .. إذا كان هذا هو منطق العقل الرشيد .. فليس كل ما يتمنى المرء يدركه ! لقد تحدثت إلى أحد فضلاء علماء الشيعة .. عندما التقينا بالجزائر أواخر ثمانينيات القرن العشرين — في "ملتقى الفكر الإسلامي" وقتئذ له :

— لقد لاحظت — وأنا أتابع إصدارات الكتب الشيعة — كثرة مبالغة فيها في الكتب التي تهجم "الوهابية" .. مع أن تعداد الوهابيين لا يعدو بضعة ملايين ، في أمة يقارب تعدادها من المليار ونصف المليار .. فلم هذا الجهد الكبير الذي تبذله في هذا الميدان ؟!

فكان جوابه :

— إنهم يكفروننا ..

فقلت له :

— وماذا في هذا ؟! .. إنهم — أو بعضهم — يكفروننا — نحن الأشعرية والماتريدية — ونحن نمثل أكثر من ٩٩% من أهل السنة .. ومع ذلك لا نقى إليهم يالا ! ..

ومنذ ذلك التاريخ — وعبر اهتمامي بالمذاهب الإسلامية — أدركت أن الشيعة والوهابية يتصرفان — كليهما — لا بعقيدة الأقلية "و" فرقة الفرقة الناجية " .. وربما بعقيدة "الدين المستقل" ، الذي يكفر أهله كل الآخرين ! ..

ولهذه الحقيقة ، نجد احتقاليهما الشديد وسعيهما الحثيث "للتحويل المذهبي" وكأنه "هداية إلى الإسلام" ! .. فالوهابيون يفرحون عندما يتحدثون عن حصادهم من "الشيعة الذين تسننوا" ، والشيعة قد جعلوا فضا من فنون تأليفهم للحديث عن الذين تحولوا من "السنة" إلى "الشيعة" حتى أصدروا — في هذا الفن — العديد من الكتب .. ومنها كتاب (المتحولون) — الذي بلغت أجزاءه سبعة مجلدات !!

وإذا كانت الأوهام درجات ومستويات .. فيها البسيط .. والمترقبط .. والتفيل .. فإن ذروة الأوهام الشيعة قد تمثلت في ذلك الذي ادعاه "الكذبة — المرتزقة" من تحول عدد من أئمة علماء أهل السنة والجماعة وأعلامهم إلى المذهب الشيعي .. لقد ادعوا ذلك على شيخ الأزهر ، ومفتي المالكية الشيخ سليم البشري (١٢٤٨-١٣٣٥هـ/١٨٦٧-١٩١٧م) .. وادعوه على الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت (١٣٠١-١٣٨٣هـ/١٨٩٣-١٩٦٣م) .. بل وبلغ بهم "الوهم — الكاذب" إلى حد ادعاء ذلك على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/١٨٤٩-١٩٠٥م) !! ..

وإذا كان هذا " الفن " من فنون " الأوهام الكاذبة .. والكاذب الوهمية " يحتاج في الرد عليه وتفنيده إلى دراسة خاصة .. فإننا نشير هنا - مجرد إشارات - إلى مكانة هذه الدعوى عن تحول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى التشيع .. مكانتها من الحقائق البهيمية والصلبة ، التي تمثلت وتجسدت - ولا تزال متمثلة ومنجسدة - في حياة الأستاذ الإمام وفي فكره - المجموع والمحقق في (أعماله الكاملة) :

١ - لقد أعلن الشيخ محمد عبده عن مذهبه ومذهب أستاذه جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤-١٣١٤هـ/١٨٣٨-١٨٩٧م) ومذهب جمعية (العروة الوثقى) - التي رأسها الأفغانى .. وكان محمد عبده نائب رئيسها - أعلن عن مذهبه فقال - في رسالة كتبها إلى أحد أعضاء هذه الجمعية - " .. ولعلم - سيدى - أننا - نأشعريون أو ما تريدون ، وإننا في أعمال العبادات دائرون بين المذاهب الأربعة ، فمننا المالكي والشافعي والحنبلى والحنفى .. " (١) .

فهو يجوز أن يقال عن صاحب هذا " الإعلان " إنه تشيع ؟ ..

٢ - وقال الإمام محمد عبده عن مذهب أستاذه جمال الدين الأفغانى وهو يترجم له في المقدمة التي كتبها لرسالة (الرد على الدهريين) - : إن مذهبه " حنفى " كأهل أفغانستان السنة - وأنه كان من أشد الناس محافظة على مذهب إمامه أبى حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠هـ/٦٩٩-٧٦٧م) .. وينص عبارة الشيخ محمد عبده عن مذهب الأفغانى :

(١) (الأعمال الكاملة - ج ١ ، ص ٦٩٧ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .

” أما مذهب الرجل فحنيفى حنفى . وهو وإن لم يكن نفس عقيدته مقننا ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة ، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية — رضى الله عنهم — وله مثابرة شديدة على أداء افرائض نفس مذهب ، وعرف بذلك بين معاصريه فى مصر أيام إقامته بها ، ولا يأتى من الأعمال إلا ما يحل فى مذهب إمامه — (أبى حنيفة) — . فهو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهب وفروعه .. “ (١) .

٣ — وإذا كانت نقطة انطلاق التشيع ، ومعيار افتراقه عن مذهب أهل السنة والجماعة ، هو رفض الشيعة إقامة الدولة والخلافة والإمامة على “الشورى” والاختيار .. وسلطة الأمة ، وإقامتها — دلا من ذلك — على “النص والوصية والتعيين” من السعاء والوحى .. وبعبارة العلامة السيد محمد باقر الصدر :

” فإن النبى لم يمارس عملية التوعية على نظام الشورى وتفصيله التشريعية أو مفاهيمه الفكرية ، ولم ي طرح الشورى كنظام للأمة ، ولكنه أعد الإمام عليها للمرجعية وزعامة التجربة بعده ، وأودعه سنته كاملة ، وعلمه ألف باب من العلم .. “ (٢) .

إذا كان هذا هو رفض الشيعة إقامة الدولة الإسلامية على نظام الشورى ، فإن الأعمال الفكرية للإمام محمد عبده مليئة بالحديث

(١) المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٣٤٣ .

(٢) محمد باقر الصدر (التشيع ظاهرة طبيعية فى إطار الدعوة الإسلامية) ، ص ٤٠ ، ٤٧ ،

٥٦ . تقديم وتعليق السيد طالب الحسينى الفرعى . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

عن الثوري وسلطة الأمة طريقا وحيدا لإقامة الدولة والخلافة والإمامة
في الإسلام .. حتى لقد خصص لهذا المبحث العديد من الفصول
والمقالات ^(١) .

فهل يكون شيعة من يفرق ويخالف ويناقض نقطة الانطلاق الشيعية
في عقيدة الإمامة ؟

٤ - وإذا كانت الشيعة تدعى أن الرسول ﷺ قد اختار معه في
"المباهلة" مع نصارى نجران سنة ١٠ هـ علي بن أبي طالب .. وزوجه
فاطمة .. وابنيهما الحسن والحسين .. ويذكرون ذلك في تفسيرهم قول
الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ قَمَنَ حَاجِبُكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ
الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا
وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ ^(٢) .

فإن الإمام محمد عبده يرفض هذه الدعوى الشيعية .. ويرفض كل
الروايات التي تؤيدها .. ويقول - في تفسير هذه الآية - :
"الروايات متفقة على أن النبي ﷺ اختار للمباهلة عليا وفاطمة
وولديهما .

ويحملون كلمة ﴿ نِسَاءَنَا ﴾ على فاطمة ، وكلمة ﴿ أَنفُسَنَا ﴾ على
علي فقط .

ومصادر هذه الروايات الشيعية ، ومقصدهم معروف ، وقد اجتهدوا
في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة .

(١) انظر : علي سبيل المثال - ج ١ ، ص ٣٨٩-٣٩٩ من أعماله الكاملة .

(٢) آل عمران : ٦١ .

ولكن واضعها لم يحسنوا تطبيقها على الآية ، فإن كلمة « نساءنا » لا يقولها العربي ويريد بها بنته ، لا سيما إذا كان له أزواج ، ولا يفهم هذا من نعتهم ، وأبعد من ذلك أن يراد « بأنفسنا » على - عليه الرضوان - وهذا الإشكال وارد على قول الشيعة ومن شايعهم .. (١) .
فهل يكون شيعة من يتهم الشيعة بالوضع - أى الكذب المتعمد - وبترويج هذا الكذب ودسه فى كتب التفسير .. ثم ينقض - بالدراية - هذه الروايات التى وضعوها ؟! ..

٥ - وإذا كان عمدة عقائد الشيعة فى الإمامة هى عصمة الأئمة .. فإن الإمام محمد عبده يرفض هذه العقيدة الشيعية من أساسها .. ويرفض تفسير الشيعة لـ « أولى الأمر » فى الآية القرآنية : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (٢) . بأنهم : أئمتهم المعصومون " .. يرفض الإمام محمد عبده هذه العقيدة المركزية والمعارية فى المذهب الشيعى .. ويقول - فى تفسيره لهذه الآية - :
" وقالت الشيعة إنهم الأئمة المعصومون . وهذا مردود ، إذ لا دليل على هذه العصمة ، ولو أريد ذلك لصرحت الآية " .

وبعد رفضه لهذه العقيدة الشيعية السحرورية ، يقدم تفسيره لـ (أولى الأمر) ، فيقول : " إن المراد بأولى الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين . وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند ،

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٥ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) النساء : ٥٩ .

وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة " .

وهو بهذا التفسير - لأولى الأمر - يجعل السلطة في الأمة عن طريق ممثلها ، وليس في الأمة المعصومين - كما هي عقيدة الشيعة في الإمامة والسلطة والدولة - .

ثم يضرب - الإمام محمد عبده - مثلاً على المؤسسات الثورية الإسلامية التي جسدت سلطة (أولى الأمر) في عهد الخلافة الراشدة - خلافة الفاروق عمر بن الخطاب - الذي يكفره الشيعة ويلعنونه! - فيقول : " .. وذلك كالديوان الذي أنشأه عمر باستشارة أهل الرأي من الصحابة - رضى الله عنهم - وغيره من المصالح التي أحدثها - (عمر) - برأى أولى الأمر من الصحابة ، ولم تكن في زمن النبي ﷺ ولم يعترض أحد من علمائهم على ذلك .. " (١) .

فهل هذا الفكر الواضح والحاسم ، الذي يرفض عقيدة الشيعة في عصمة الأئمة " وينحاز إلى الثوري ومؤسساتها كمصدر للسلطة - وليس إلى السلطان الإلهي ملائمة المعصومين .. كما ينحاز إلى نهج عمر بن الخطاب والصحابة - الذين يكفرهم الشيعة ويلعنونهم - في سياسة الدولة .. ويترضى عن هؤلاء الصحابة ١٩؟ ..

هل يمكن أن يكون هذا الفكر الواضح والحاسم صادراً من شيعي ١٩؟ .

(١) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٢٦٩ .

٦ - وانطلاقاً من وسطية أهل السنة والجماعة ، يرفض الإمام محمد عبده الغلو الشيعي .. ويقول : " وغلا بعض الشيعة فرفعوا علياً أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو ما يقرب منه ، وتبع ذلك خلاف في كثير من العقائد .. " (١) .

فهو إطلاق لفظ " الغلو " على مذهب الشيعة في الإمامة ، وفي علي عليه السلام والأئمة من بعده ، يمكن أن يصدر عن شيعي .. تحول من السنة إلى الشيعة !! ..

لقد قال الشيعة الإثني عشرية في علي بن أبي طالب :

" كان .. عليه السلام .. مخدئاً .. يحدثه المنيك .. " (٢) .

وقالوا عن كل إمام من أئمتهم الإثني عشر :

" إن قوة الإلهام عند الإمام ، التي تسمى بالقوة القدسية ، تبلغ الكمال في أعلى درجاته .. ويمتد توجسه إلى شئ من الأشياء وأراد معرفته استطاع علمه بتلك القوة القدسية الإلهامية ، فلا توقف ، ولا ترتيب مقدمات ولا تلقين معلم .. والأئمة لم يتربوا على أحد ، ولم يتعلموا على يد معلم ، من مبدأ طفولتهم إلى سن الرشد ، حتى القراءة والكتابة ، ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتاتيب أو تكلم على يد أستاذ في شئ من الأشياء ، مع ما لهم من منزلة علمية لا تجاري ، وما سننوا عن شئ من الأشياء إلا أجابوا عليه في وقته ، ولم تمر

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٧٧ .

(٢) الكافي (الكافي) ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

على أسنتهم كلمة (لا أدري) ولا تأجيل الجواب إلى المراجعة أو التأمل ونحو ذلك .. (١) .

فيل رفض هذه العقيدة الشيعية في الأئمة ، ووصفها ' بالغلو ' يمكن أن يصدر عن متحول من السنة إلى الشيعة !؟ ..

٧ - وإذا كان الشيعة قد جعلوا للإمام سلطة دينية كهنوتية .. فهو المعصوم .. والمنصوص عليه .. والمعين من السماء - بواسطة الوحي - .. وهو مصدر الشريعة .. والحافظ لها .. والقيم عليها - بل والقيم على القرآن - .. والذي لا يجوز عليه الخطأ . بينما يجوز الخطأ والضلال على الأمة جمعاء .

ولقد قاسوا الإمامة على النبوة .. بل ورفعوها فوق النبوة ، فقالوا : ' إن دفع الإمامة كفر ، كما أن دفع النبوة كفر .. ولقد امتازت الإمامة على النبوة لأنها استمرت بأداء الرسالة بعد انتهاء دور النبوة .. فالنبوة لطف خاص والإمامة لطف عام ' (٢) .

بل وجعلوا لهذا الإمام خلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون ! - وليس فقط الأمة والدولة والاجتماع ! - ورفعوا مقام الإمام فوق مقام الرسول ! .. وبعبارة الإمام الخميني :

(١) محمد رضا المظفر (عقائد الإمامية) ، ص ٧٦-٧٩ ، طبعة التجيد ، دار النعمان .

(٢) (التأكي) ج ١ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، والفيلسوف (تلخيص الشافي) ج ٥ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ ، طبعة التجيد سنة ١٣٨٤ هـ .

.. فإن للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون . وإن من ضرورات مذهبنا أن لا نأتمنّا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل .
 " وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارا ، فجعلهم الله يعرشه محدقين ، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله " (١) .
 بل ويجعلون هذه السلطة الدينية الكهنوتية — التى تفوقت على السلطة الحبرية للبابوات — للفقيه النائب عن الإمام — فى عصر الغيبة للإمام الغائب — :

وذلك " لأن الفقيه هو وصى الرسول من بعد الإمام ، والحجة على الناس كما كان الرسول حجة عليهم . وفى عصر الغيبة يكون — (الفقيه النائب) — هو إمام المسلمين دون سواه .. وله كل سلطات الإمام ، الذى هو حجة الله .. الذى عينه الله .. فأنه جعل الرسول وليا للمؤمنين جميعا ، ومن عبده كان الإمام وليا .. ونفس هذه الولاية والحاكمية موجودة لدى الفقيه .. فالقيم على الشعب بأسره لا تختلف مهمته عن القيم على الصغار إلا من ناحية الكمية .. " (٢) .

إذا كانت هذه هي السلطة الدينية الكهنوتية للإمام عند الشيعة .. فكيف يكون الشيخ محمد عبده شيعيا ، وهو الذى نقض هذا البناء الكهنوتي

(١) الخميني (الحكومة الإسلامية) ، ص ٥٢ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٧ ، ٤٩ — ٥١ .

من أساسه ؟ .. بل واعتبر نقض هذا البقاء واحداً من أجل أصول الإسلام ؟ .. إنه هو القاتل :

‘ أصل من أصول الإسلام – وما أجله من أصل – قلب السلطة الدينية والإيمان عليها من أساسها ، هدم الإسلام بنساء تلك السلطة ، ومحا أثرها ، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم .. إن الرسول كان ميلغاً ومذكراً ، لا مهيمناً ولا مسيطرًا .. والمسئومون يتناصحون ، وهم يقيمون أمة تدعو إلى الخير ، وهم المراقبون عليها ، وتلك الأمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والإنذار .. فليس فسي الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .. والله لم يجعل للخليفة ولا لنقاضي ولا للمفتي ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام .. وكل سلطة تناوبها واحد من هؤلاء هي سلطة مدنية .. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه : أو ينازعه في طريق نظره .. فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير والتنفير عن الشر ، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلامهم ، كما خولها لأعلامهم يتناول بها من أبنائهم .. وليس لمسلم مهما علا كعبه في الإسلام على آخر ، مهما انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحة والإرشاد ‘ (١) .

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ، ج ٣ ، ص ٢٨٥-٢٨٩ .. طبعة بيروت .

سنة ١٩٧٢ م .

فهل يمكن أن يكون صاحب هذا الفكر والموقف ، المتناقض واليهام لعقيدة الشيعة في سلطات الإمام وسلطانه ، شيعياً .. تحول من مذهب أهل السنة والجماعة إلى مذهب الشيعة الإثني عشرية ؟ وكيف جاز ذلك " الوهم - الكاذب " على من له أدنى ذراية بفكر الأستاذ الإمام ؟ ..

٨ - وأخيراً .. فإن الضربة القاصمة والقاضية في هذا النظام - دعوى تحول محمد عبده عن السنة إلى الشيعة - تأتي صريحة وحاسمة .. وعلى لسان محمد عبده نفسه .. وبرواية تلميذه ومريده وموضح سره الإمام السيد محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ/١٨٦٥-١٩٣٥م) .. روايته لرأى أستاذه محمد عبده في مذهب الشيعة .. والذي بلغ من شدته الحد الذي جعل محمد عبده يطلب من رشيد رضا عدم إذاعته في حياته .. بل وجعل رشيد رضا يتخرج من إذاعته حتى بعد وفاة الأستاذ الإمام ..!

ولنقرأ ما سجله الشيخ رشيد رضا في (تاريخ الأستاذ الإمام) عن هذا الرأي ، لنعلم حقيقة موقف محمد عبده من مذهب الشيعة ..

يحكي الشيخ رشيد - في الحوار الذي دار بينه وبين الشيخ محمد عبده حول البهائية .. ودعوى داعيتهم عباس ميرزا فضل الله (١٢٦٠-١٣٣٩هـ/١٨٤٤-١٩٢١م) - أنهم - (البهائية) - ما قاموا إلا " لإصلاح مذهب الشيعة وتقريبه من مذهب أهل السنة " .. ثم يقول الشيخ رشيد :

.. وذكر — (أى الأستاذ الإمام) — ما لم يأذن لى بنقله عنه فلى

حياته .

وأرى الحكمة فى ترك التصريح به بعد وفاته .

وإنما أقول : إن حكمه عليهم — (الشيعة) — أشد من حكم شيخ

الإسلام ابن تيمية .

وقال — (أى محمد عبده) : " هم أحوج الفرق إلى الإصلاح .. " (١) .

وإذا كان إخواننا الشيعة — علماء وعامة — يعرفون جيداً حكم شيخ

الإسلام ابن تيمية عليهم — وهو ما لا نريد أن نذكره هنا — .. وإذا كان

حكم الإمام محمد عبده على مذهبهم أشد من حكم ابن تيمية .. فكيف يلقى

بهم أن يفتحوا أبوابهم ' للكذبة — المرتزقة " لسيوفوا عليهم موقف

محمد عبده من الشيعة والتشيع ، فيذعنون تحونه من السنة إلى الشيعة ،

لا بدليل .. ولا قرينة .. وإنما بحكايات خرافية هي أشبه ما تكون بحكايات

العجائز لصغار الأطفال !! .. ثم يكتبون ذلك ويطبعونه وينشرونه فيما

صنفوا عن (المنحولين) !؟ ..

إننا إذ نكتفى — فى هذا المقام — بهذا الحديث عن حقيقة موقف

الإمام محمد عبده من المذهب الشيعى .. لا نريد مناقشة رأيه .. وإنما نريد

(١) رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الإمام) . ج ١ . ص ٩٣ . طبعة مطبعة المعارف —

القاهرة سنة ١٣٥٠هـ — ١٩٣١م ، وانظر كذلك (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده)

ج ٢ ، ص ٥٦٠ ، ٥٦١ .

تبيان هذا الزيف الذي يزيفه البعض على العديد من رموز علماء أهل السنة .. ونقول لهم :

إن القضاء الشيعي ملئ بالعلماء والفلاسفة والفقهاء .. فعلى العقلاء من هؤلاء العلماء الأجلاء أن يتخلصوا من " عقدة الأقلية " ، الباحثة بأى أسلوب .. حتى ولو كان المكيافيلية عن تكثير الأعداء .. وعن شهادة الآخرين للمذهب - ولو بالزور - .. ذلك لأن النزاع " ألغام التكفير " هو السبيل لبناء وحدة الأمة .. وبهذه الوحدة يتخلص الجميع من هذه " العقدة " ، التي تلجئ البعض إلى ما لا يليق ! ..

والآن .. ما العمل ؟؟

إننا ندعو الآن أن يتنادى حكماء المذاهب الإسلامية - وخاصة من السنة .. والشيعية .. والسلفية والصوفية - إلى حوار حكماء ، تعقد جلساته بعيداً عن العامة والإعلام ، للاتفاق على أمرين : أولهما : عاجل .. وهو إصدار فتوى جماعية - سنية .. شيعية .. صوفية .. سلفية - بتحريم وضع تهمة التكفير وما يتصل به لأي من مذاهب الأمة ، التي يشهد أهلها أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. تحريم وضع هذه الاتهامات على مواقع الإنترنت ، وغيرها من وسائل النشر والإعلام الجماهيرية ..

وثانيهما : العمل على تهذيب كتب التراث - لدى هذه المذاهب جميعها - وذلك بتطهيرها من كل أحكام التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. وذلك لنزع هذه الأتغام الموقوتة والمتفجرة من ثقافة الأمة .. الأمر الذي بدونه سيظل الحديث عن وحدة الأمة ضرباً من انعبث ، بل - وفي بعض الأحيان - لونا من ألوان النفاق ! .

لكن .. يبقى السؤال الأهم .. وهو :

— هل هناك إمكانية حقيقية لتتهذيب هذا التراث المتجذر ، وتغليبيره
من ألغام التكفير ؟^{١٩}

— إن جوابنا هو : نعم . إذ نص بدأنا حوار الحكماء هذا بعدد —
ولو قليل — من ذوى الحكمة والإخلاص والوعى بالمخاطر التى تهدد
وجود الأمة ، والتى تتوسل بالصراعات المذهبية لتحقيق مقاصد الأعداء ..
لقد سبق لعدد كبير من علماء الشيعة الإثنى عشرية أن راجعوا
وانتقدوا الروايات التى امثلأ بها ترالهم ، والتى تتحدث عن تحريف القرآن
الكريم ، وعن وجود مصحف خاص بالشيعة ، يسمى ' مصحف على '
أو ' مصحف فاطمة ' .

راجعوا هذه الروايات .. وضيعوها .. وانتقدوا المؤلفات التراثية
الشيوعية التى انطلقت منها — من مثل كتاب ' الميرزا حسين الشورى '
[فصل الخطاب فى تحريف كتاب رب الأرباب]^{٢٠} .

ولقد قمنا فى هذه المراجعة النقدية عددا من المبادئ الهامة فى
منهج المراجعة لهذا التراث ، ومنها :

١- أن أغلب هذه المرويات التى مزقت وتمزق وحسنه الأمة قد
جمعها ولسلمها ودونها " الإخباريون " ، الذين كانت كل مهمتهم جمع
وتدوين ما يسمعون من المرويات دونما نقد أو مقارنة أو دراية أو فقه
أو اجتهاد .. وهذا المنهج " الإخبارى " قد مثل مرحلة فى التاريخ الفكرى
لجميع المذاهب فى تاريخ الإسلام الحضارى ، الأمر الذى يوجب على أهل
" الدراية " و " الاجتهاد " إعادة النظر والفحص لهذه المرويات .

٢- إنه لا قداسة ولا عصمة لكُتُب القُرَّات التي جمعت روايات "الإخباريين" هذه .. وليس فيها ما يعلو على المراجعة ، سواء السند والرواية والرجال .. أو لُتَمَنَ والدراية لمضامين ومعقولات هذه المرويات .

وفي هذا الإطار رأينا علماء الشيعة الإثني عشرية يتحدثون عن المصدر الأول لأحاديث عندهم - كتاب [الكافي من الأصول] للكليني - وهو المقابل لصحيح البخاري عند أهل السنة - فيقولون عن هذا الكتاب - الذي شاعت فيه روايات التكفير .. وروايات تحريف القرآن :

" .. وأما بالنسبة إلى [الكافي] - الذي ألف خلال عشرين سنة - فنحن لا نقول بصحة كل الروايات التي نقلها الكليني فيه ؛ لأن قسما منها يعد من حيث السند ضعيفا أو مراسلا أو غير ذلك . وقسما آخر منها لا يوافق القرآن ، ويمكن أن يחדش فيه من حيث المتن .

ويقول السيد هاشم معروف الحسيني - في كتابة [دراسات في الحديث والمحدثين - ص ١٣٢ ، ١٣٤] - : " إن المتقدمين لم يجمعوا على الاعتماد على جميع مروياته - [الكافي] - جملة وتفصيلا " .

ويقول أيضا : " إن أحاديث الكافي ، التي بلغت ستة عشر ألف حديث ومائة .. وتسعة وتسعين - ١٦١٩٩ - حديثا ، وهي :

* الصحيح منها : خمسة آلاف واثنين وسبعين حديثا " ٥٠٧٢ .

* والحسن : مائة وأربعة وأربعين حديثا " ١٤٤ .

* والموثق : ألفا ومائة وثمانية وعشرين حديثا " ١١٢٨ .

* والقوى : ثلاثمائة وحديثين " ٣٠٢ .

* والضعيف : تسعة آلاف وأربعمئة وثمانين حديثاً " ٩٤٨٠ .

هذا من حيث السند فقط .^(١) .

فإذا كان هذا هو موقف الاجتهاد الشيعي من روايات الإخباريين ،
انتي جاءت في أهم مصادرهم الحديثية - [الكافي] فإننا نكون بإزاء
إمكانية حقيقية ، بل وفرصة ذهبية ، لمراجعة كل التراث المذهبي لدى
مختلف الفرق والمذاهب والتيارات الفكرية ، لنزع " ألغام التكفير " من هذا
التراث ، وتبذير كتبه ، وتقديمها في الصورة التي تجعل منها عاملاً من
عوامل وحدة الأمة ، بدلاً من أن تكون عامل تمزيق وتفريق ..

نقد راجع الشيعة الإثني عشرية - بهذا المنهج - كل مروياتهم التي
تحدثت عن تحريف القرآن الكريم - بما فيها مرويات [الكافي] - وقدموا
كتاب [أكذوبة تحريف القرآن بين اثنيعة والسنة] . الذي صدرت طبعته
الرسمية في طهران ١٩٨٥م .. والذي قدمنا له واحدنا طبعة بالقاهرة
٢٠٠٦م .

وإنك ، فإننا أمام إمكانية حقيقية وفرصة ذهبية لحوار حكماء .
يجمع صفوة من عقلاء علماء المذاهب الإسلامية ، الذين يفتقرون وأقنعنا
المعاصر مع فقيهم للأحكام .. والذين يعيشون ويرابطون على ثغور
المواجهة بين الأمة وبين " الصليبية - الصهيونية " ، ويدركون أثر الوحدة
الإسلامية في الانتصار على التحيزات الشرسمة التي تواجه الإسلام

(١) الشيخ رسول جعفریان [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] ص ٧٩ ، ٨٠ .

تقديم د . محمد عسار . طبعة مكتبة النافذة - القاهرة سنة ٢٠٠٦ .

والمسلمين ، ولا يقدمون الارتزاق من التعصب المذهبي على المصالح العليا للأمة الإسلامية ..

إن حواراً علمياً .. صبوراً يقوم به نفر من هؤلاء العلماء الحكماء ، لإنجاز هذا المقصد العظيم — تطهير التراث المذهبي من نهم التكفير وأحكامه لمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله — فهو الفريضة الفكرية الأولى ، التي نقودنا إلى فريضة وحدة أمة الإسلام .

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ..

♦ * *

إن علينا أن نتعلم المنهج القرآني الذي لا يعم ولا يطلق الأحكام على الآخرين .. منهج : « ليسوا سواء » ^(١) .

* فالشيعة ليسوا سواء .

* وأهل السنة ليسوا سواء .

* والصوفية ليسوا سواء .

* والسلفية ليسوا سواء .

فعلينا أن نتوكل على الله ، ونختار المؤسسة العلمية المؤهلة باندعوة وشرعية لهذا الحوار .. الذي نعلق عليه وعلى تجاحه الآمال الكبار إن شاء الله ..

* * *

(١) آل عمران : ١١٣ .

وإذا كنا قد اضطررنا - في هذه الدراسة - إلى تقديم نماذج من " الفواحي الفكرية " التي تتقاذفها مذاهب وتيارات فكرية عبر وسائل الاتصال الحديثة .. فإن الهدف من ذلك إنما كان (تشخيص الداء) طلباً (للدواء) .. وليس إشاعة جرائم هذا الداء بين العامة والجمهور .. ذلك أن تقنيات وسائل الاتصال الحديثة يجب أن توضع - دائماً وأبداً - في خدمة وحدة الأمة ، بدلاً من تسخيرها - كما هو الحال الآن .. في إشاعة " الفواحي الفكرية " بين عامة المسلمين وغير المسلمين ..

وصدق الله العظيم : ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (١) . والله من وراء القصد .. منه نستمد العون والسداد والتوفيق ..

(١) الأنفال : ٦٣ .

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
كلمات	٥
١ - تمهيد	٩
٢ - حتى يكون التقريب حقيقياً	١٦
٣ - مقال في التحذير من التكفير	٢٩
٤ - مستويات الخطاب .. ومستويات المخاطبين	٤٧
٥ - ثورة الإعلام المعاصر .. وإشاعة فتنة التكفير بين الجماهير ..	٦١
٦ - التكفير الصوفي للوهابية	٦٦
٧ - التكفير الوهابي للشيعة .. والصوفية .. والأشعرية ..	٧٠
٨ - النزعة التكفيرية عند الشيعة	٧٣
٩ حقائق .. وأوهام	٨٨
١٠ - والآن .. ما العمل ؟!	١١٣

طبع

بمطبعة وزارة الأوقاف

يسر المجلس الأعلى للفنون الإسلامية

أن يبرود المكتبة الإسلامية والقارية المسلم في جميع أنحاء العالم الإسلامي بأهميات الكتب التي
صدرت عن المجلس ومنها :

أهميات كتب التراث الإسلامي

سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد . الأجزاء من ١ إلى ١٢	مختصر سيرة ابن هشام . الأجزاء ١ إلى ٢
سيرة النبوة لابن كثير . الأجزاء من ١ إلى ٤	إخلاص القلوب . الأجزاء من ١ إلى ٤
نصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . الأجزاء من ١ إلى ٦	نسخ البخاري . الأجزاء من ١ إلى ١١

سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة

الموسوعة القرآنية	موسوعة علوم الحديث	موسوعة أعلام الفكر الإسلامي
موسوعة الحضارة الإسلامية	موسوعة التشريع الإسلامي	

المصحف الشريف

المصحف الشريف طباعة ٢ لون نسخة ذهب . المصحف العلم ٢٨ شريطاً للشيخ محمود خليل الحصري
المختار في تفسير القرآن الكريم باللغة العربية . المصحف المرقم ٢٢ شريطاً للشيخ محمود خليل الحصري
مجلد فاخر طباعة أوفست ٢ لون وترجمته . المصحف الجود ٩٠ شريطاً للقراء عبد الباقع عبد الصمد
واللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية . مصنفات إسماعيل محمود على الشبان محمود خليل الحصري
والروسية والآسيانية والأندونيسية .

وهذه الكتب لكبار العلماء القدامى وكبار المحققين في العالم الإسلامي :

موسوعة الفقه الإسلامي . الأجزاء من ١ إلى ٢٨	حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين
الفتاوى الإسلامية مجلدات الأجزاء من ١ إلى ٢٠	الأحاديث القدسية مع تعليق كبار العلماء
	ينابيع الأحكام في معرفة الحلال والحرام

مراكز البيع

القاهرة ٩ شارع البنايات . جاردن سيتي	٢ شارع الأمير فؤاد المشرق من ميدان التحرير
مكتبة مسجد التور بالعباسية	٧٦ شارع الجمهورية (ترافيك القرآن الكريم)
الإسكندرية فرع المجلس الأعلى للفنون الإسلامية . ١٢ شارع سعد زغلول	

مواعيد العمل من ٩ صباحاً إلى ٢ ظهراً

وتتبعها على القاريه المسلم ومشاركة في ترميم المكتبات الإسلامية بالمعلومات التي صدرت عن المجلس . تساع هذه المقومات
للجمهور بغير التكلفة المادية . مع إجراء نسبة دعم البيع بالتلف إذ أراد عدد النسخ المادية على بعض النسخ الواحد أما
بالنسبة لتجهيزات الحكومية والتجهيزات العامة فيمكن البيع بالأجل على أقساط شهرية دون أية زيادة على أسعار التكلفة الفعلية